عذراء وثلاثة رجال

جيمس هيلتون

ترجمة

الدكتور زكريّا مرزا

منشورات

المكتبة الحديثة - بيروت

دار الشرق العربي - بيروت

عذراء وثلاثة رجال

مؤلف الرواية

مؤلف هذه الرواية كاتب انجليزى معاصر فى الخامسة والخمسين من عمره اذ كانت ولادته فى لانكشاير ــ وهى مقاطعة انجليزية ــ فى سنة ١٩٠٠ للميلاد

وقد تلقى جيمس هيلتون تعليمه الجامعى فى جامعة من أعرق الجامعات الانجليزية ، وهى جامعة كمبريدج . وكان ملحوظ التفوق والالمعية فى مدة الدراسة . وهو من هذا الوجه يعتبر شبيها ببطل قصته « كونواى

وبلغ من نبوغه أن جريدة المانشستر جارديان قبلت نشر أعماله وهو بعد طالب بالجامعة ، ومنحته عنها أجرا . وذلك تقدير غير قليل ، اذا علمنا أن المانشستر جارديان ليست جريدة محلية تنسب الى مانشستر فحسب ، بل هى من أكثر الصحف البريطانية العامة اعتبارا وأوسعها انتشارا

ومن باب المانشستر جارديان دخل جيمس هيلتون باب الصحافة والادب . وكان عمله فى الصحافة الادبية ملحوظا من القراء والنقاد ، اذ عهدت اليه الديلى تلغراف فيما بعد بمهمة محرر النقــد الادبى للروايات . وهى وظيفة لا يعهد بها فى الصحف البريطانية المحترمة الا لمن رسخت اقدامهم فى الفن الادبى ، واستقرت الثقة بأذواقهم وحسن وزنهم للانتاج الادبى المستفيض فى تلك البلاد

ونستطيع أن نعرف مقدار الحرج الذى كان من الممكن أن يقع فيه المؤلف وهو يعمل ناقدا ادبيا فى الصحف الكبرى ، اذا قدرنا أنه هو نفســه من مؤلفى القصص . فهو يعرف ذلك الفن معرفة من اصطلى بنار الانتاج ، لا معرفة المترف المتفرج . وقديما قيل ان النقد يسير هين ، أما الانتاج فعسير شاق . ومؤلفنا قد عزف العلمين ، فلايمكن أن يرمى بتلك . ولكن يمكن اتهامه بالتعصب لمدرسة معينة فى الادب الروائى مثلا . . .

وهذا أيضا كان جيمس هيلتون بريئا منه ، والا لما نجح فى النقد الادبى . وقد استمر يعمل فى ميدانه سنوات طويلة الى أن تفرغ لكتابة القصص بعد ذيوع شهرته فيها ذيوعا عظيما ...

ولقد سبق لسلسلة روايات الهلال أن أصدرت لهذا الكاتب رواية « الافق الضائع » فى نوفمبر ١٩٥٥ التى اعتبرت من الدعائم القوية التى قامت عليها شهرته العالمية ، وضربت فى توزيعها أرقاما قياسية فى أمريكا وانجلترا على السواء . ومن ثم اقبلت عليها شركات السينما ، واخرجتها على الستار الفضى ، كما اخرجت روايته الاخرى « وداعا مستر شبس »

واليوم نقدم لهذا القصصى البارع هذه القصة الممتعة « عذراء وثلاثة رجال » ، وهى كغيرها من روايات هذا الاديب القصاص العالمى ، تستحوذ على لب القارىء منذ بدايتها حتى نهايتها . وقد استطاع جيمس هيلتون ان يحلل فى هذه الرواية الشائقة شخصيات الرواية تحليلا دقيقا ، وأن يكشف عن أعمق أعماق العواطف البشرية

ومنذ سنة ١٩٣٥ استقر جيمس هيلتون فى أمريكا ، واحترف كتابة القصص السينمائى لعاصمة الشاشة الفضية « هوليوود »

أشخاص الرواية

• **فرينشام** Frensham : ثرى من محبى المغامرات جمع ثروته من المشروعات المالية الناشئة ومن المناجم والمضاربات

• **مارجريت** Margaret : ابنته . ذات تفكير هادىء وصلابة وطباعها أقرب لطباع الرجال

• **بومى (بوميروى)** Pommy : ابنه . طبيب كثير الاعتماد على غيره . ضعيف البنية فى صباه . موظف دبلوماسى

• **ليلى** Leila : ابنته الصغرى . جميلة عادية الذكاء محبة للهو ومفتونة بالتبرج

• **اوين بينجلى** Owen Bingley : رجل أعمال استغلالى من غلاة المحافظين قوى الشخصية محب للسيطرة وضد كل حقوق الطبقة العاملة . زوج ليلى

• **بولين بريثويت** Pauline Braithwite : من الطبقة العامة . ممرضة متطوعة فى المستشفى العسكرى . تزوجها بومى

• **لوفل** Lovell : صانع نابغ ومخترع مكافح

• **كارول** Carroll : جندى أمريكى فنان

• **فرجيسون** Fergusson : طبيب الاسرة

• **دارنت** Darrent سائق وسائس

• **مينشن** Minchin : ساقى الاسرة العجوز

الفصل الأول

أسبوع

مامن شك فى أن ذلك الاسبوع كان أسبوعا يستحق أن يوصف بالجمال والروعة . وكانت مرجريت يومئذ توشك ان تبلغ الحادية والعشرين من عمرها وهى متوجهة فى العربة التى تجرها الجياد المطهمة الى محطة بادينجتون بعد ان أتمت أول زيارة لها لمدينة لندن وخامر مارجريت الاحساس بأن هذا الاسبوع الجميل لم يكن ينقصه شيء اللهم الا أن يكون معهما بومى . فلو تم ذلك لكانت الروعة بالغة حد الكمـــال

وكان العبير اللطيف المنبعث من سيجار مرافقها يتسلل عبر العربة الى وجهها وأنفها . وكلما رمقته بنظرة جانبية من عينيها ، طالعتها من وجهة نظره الرضا الذى يوشك أن يمسى تيها وزهوا . فالحق أنهما نعما طيلة هذا الاسبوع بتمضية وقت طيب هنيء

ومرت العربة أمام دار مدام تيسو ، فتذكرت مارجريت كيف استولت عليها الدهشة البالغة ، بل كيف أخذت عندما اكتشفت ذلك الشبه الشديد بين القاتل وينرايت وبين الشاعر لورد تنيسون . ولكن لندن مدينة حافلة بالاعاجيب والمدهشات . . .

وكانت مارجريت جالسة وقامتها منتصبة انتصابا كاملا ، وعقلها يقظان يقظة كاملة كذلك والعربة تدرج بهما ، وقبعتها ذات الحـافة العريضة مائلة الى الامام فوق كتلة من شعر احمر نحاسى غزير ، ومن تحتها عينان عسليتان وبشرة وجه تركت فيها أشعة الشمس أثرا قويا . فلولا حمرة الشعر وصلابة الفك لظن الناظر انه ازاء فتاة تجرى فى عروقها دماء أهل الجنوب

ولم تكن تتكلم الا قليلا . ولكن صوتها العريض الغنى فيه مرونة

تكفل له القدرة على الارتفاع فوق لغط الثرثرة في حجرة حافلة ، كما تكفل له القدرة على التسلل الى الاذن في طبقة الهمس وسط تلك الضجة . وعلى الجملة كان كيم فرينشام راضيا كل الرضا عن الاثر الذى تركته ما رجريت فى دوائر لندن

ولكن الشيء الذى فاته ان يفكر فيه هو الاثر الذى تركه هو فى نفس ما رجريت بالذات ...

فعلى طول الطريق الى بادينجتون كانت مارجريت مستغرقة فى تقليب مشكلة جديدة ، هى مشكلة تلك الحياة « الاخرى » المذهلة التى سمح لها والدها أن تلقى عليها نظرة خاطفة . وزادت دهشتها كثيرا وهى تحاول الان أن تلقى نظرة شاملة تسترجع بهـا ذلك الاسبوع كله جملة

ولو ان بومى كان معها لوجدت شخصا تتحدث اليه عن ذلك الامر . اما الان وهى وحدها فليس امامها الا ان تقلب الخواطر وتعيد تقليبها فى ذهنها الحائر

لقد كانت تعلم بالطبع أن والدها كان طول حياته معدودا بين الاثرياء . وانه بلا ريب ذو أصدقاء كثيرين لم تكن تعلم عنهم شيئا . ولكن مع هذا اذهلها ذلك الاستقبال الذى تلقتها به دوائر المجتمع اللندنى . ففى كل قاعة استقبال ، وفى كل ملعب من مـلاعب التمثيل ، بل فى كل ركن تقريبا من اركان الشوارع الكبرى كان الكل يهتفون به :

ـــ مرحى ! اهلا بك يا كيم !

ولم تكن تعرف هذه الكنية لوالدها قبل هذا الاسبوع . فرأى لذلك أنه ينبغى أن يوضح لها الامر :

ـــ أطلقوا على هذه الكنية لاننى منذ بضع سنوات جنيت شيئا من الثراء عن طريق الاستثمارات فى كيمبرلى ... فهناك مناجم للماس كما تعلمين

بيد أنهذا التوضيح لم يقلل من دهشتها وحيرتها . كانت مندهشة لان هذا الرجل الذى كان يتحدث على سجيته التامة مع الفلاحين فى الحقل او فى الجرن ، يتكلم على سـجيته التامة ايضـا وبنفس الاسلوب الى الدوقات على مائدة العشاء

ومهما يكن من شيء فهي تشعر بالسعادة بعودته الان معها الى اولئك الفلاحين والى الحقول والاجران . فلما سألها والعربة تدرج بهما فوق بلاط الشارع قرب المحطة :

ــ اآسفة انت على مغادرة لندن يا مارجريت ؟

هزت راسها هزة يسيرة جدا كأنهـا في شك من اسفها على الانتهاء من تلك الرحلة السحرية . واستطرد والدها يقول :

ــ لقد فكرت فى ان اتخذ لى بيتا فى لندن فى السنة القادمة

فسألته بشيء من الدهشة :

ــ بيتا لنا كلنا ؟

ــ لكل من استطاع او شاء الحضور . وربما استطاع بومى ان يأتى الى ذلك البيت فى فترات الزيارة . وسيأتى على كل حال ثلاثة اشخاص هم انت وليلى وأمكما . . .

فقالت بتحفظ :

ــ هذا اذا قررت امى المجيء

ــ آه . نعم . يجب ان نبذل جهدنا فى اقناعها . فقد يجدى عليها تبديل الهواء . وانت تعلمين انى دعوتها للمجيء معنا هذه المرة ، ولكنها اجابتنى بأنى لم اعرفها بتلك الرغبة قبل السفر بوقت يكفيها للتأهب له . ولذا بقيت فى الدار

فهزت مارجريت راسها هزة من تدرك الظروف وتقدرها . واعتصمت بالصمت الى ان دخلت العربة فناء المحطة . وقفز الاب هابطا الى الارض ، ثم اعانها على النزول . فشعرت عندئذ بما كانت تشعر به دواما فى الامكنة المزدحمة من زهو شديد لوجودها معه . فهو فارع الطول ، ضخم القامة ، وسيم اسمر الوجه ، تزينه سالفتان بلون رمال الشاطيء . وكل حركاته وتصرفاته توحى بالعظمة والابهة وازهتها سخاوته فكأنه امير من الامراء فى عطيته الكريمة للحوذى ، وفى أمره للحمال بأن يذهب بالحقائب الى القطار المسافر صوب شيبينج نورتون . وبلغ زهوها وافتخارها به غايته حتى لقد طفرت الدموع فعلا الى عينيها وهو يأخذ بيدها معتمدا على ذراعه مخترقا بها فناء المحطة

ولما اقتربا من كشك الصحف والكتب وضع فى يدها نصف جنيه

ذهبا وقال لها :

ـ اشترى لنفسك شيئا تقرأينه فى الطريق ، لاننى قد لا استطيع أن اتحدث اليك كثيرا أثناء الرحلة . فقد رتبت الامر بحيث يقابلنى هنا رجل ليسافر معنا ، ويقضى فى بيتنا بضعة أيام . رجل اســـمه مستر لوفل ...

وبعد ساعة من الزمن كانت تحملق والوسن يداعب جفنيهـا من خلال النافذة ، وقد أخذ القطار يقترب من ريدينج • وفوق ركبتيها مجلة ذات غلاف ازرق تضم موضوعات جيدة . ولكنها أسفت لانها لم تجد فيها قصة من تلك القصص المدهشة التى يقوم بالبطولة فيها شارلوك هولمز ...

ولا شك فى انهم سيضطرون لتغيير القطار فى محطـــة شيبينج نورتون . ولكن ذلك افضل على كل حال من الاستمرار فى اختراق مقاطعة جلوسستر• وكم يكون بديعا ورائعا لو أمكن الطيران فى الهواء بواسطة الة من الآلات .. ففى المجلة مقال عن شيء من هذا القبيل. وزعم كاتب المقال أن انسانا ما افلح فى تحقيق هذا الحلم فى مكان ما بامريكا !

وبين الحين والحين كان يطرق سمعها عاليا فوق ضجة القطـــار صوت والدها العميق الرنان المرح :

ـ ولكن يا عزيزى لوفل ... خذ بالك ... اسمح لى لحظـــة واحدة أن أراجعك فيما قلت الان ..

وكانت الرجل الغريب طريقة خاصة فيها ثقة وحماسه وهو يقول :

ـ أؤكد لك يامستر فرينشام ... أنا متأكد ... أنا واثق ...

وكان اكبر منها . لقد قدرت له عمرا يقرب من الخمسة والعشرين عاما

ولم تكد تحدث فترة صمت بين احاديث الرجلين المتصلة ، الى أن آن للثلاثة أن يغادروا القطار كى يركبوا قطارا جانبيا بطيئا . وعندئذ التفت اليها والدها ، وأبدى لها عن امله الا تكون احاديثه المتصلة مع ضيفه الشاب قد أضجرتها . فابتسمت وأجابته أنها فى الحقيقة لم تكن مصغية بأى وجه من الاوجه الى مايقولان . فانفجر الاب

ضاحكا بصوت مرتفع وهو يدس ذراعيه فى ذراعيهما ليسيروا على طول رصيف المحطة وقال للشاب :

ــ لعمرى يالوفل هذه تحية لك ! فهذه السيدة الشابة لم تعرك سمعها ! وهذا ميزان نزيه لقيمة أفكارك !

فاحمر وجه الشاب احمرارا شديدا ونظر اليها فيما خيل اليها ــ بشيء من التوسل . وعندئذ اشار أبوها الى القطار الذى كان عليهم أن يستقلوه وقال لها :

ــ هذا يامارجريت شيء ربما طاب لك ان تعلمى أنه صار من مخلفات الماضى . لقد أصبح البخار مقضيا عليه . وفى مدى عشر سنوات سنكون جميعا راكبين قاطرات تسير بالبترول نمخر بها الشوارع والطرقات !

فهتف الشاب متحمسا :

ــ سيحدث هذا حقا يامستر فرينشام ! انا على يقين من هذا !

وكانت هذه اول مرة تتفحصه فيها بنظرها وحواسها تفحصا دقيقا واعيا . فاذا به طويل عريض الكتفين . وعيناه حالكتا السواد ، لاسعتان بوميض خاطف تكاد حماستهما ترمى بالشرر . وكانت سحنته كلها تدل على صفة واحدة تنم عنه هى اللهفة

واستطرد الوالد يقول وهم يدخلون مقصورة فى القطار البطيء :

ــ هيا الآن يالوفل اتمم كلامك . فأنا على تمام الاستعداد للاصغاء، حتى ولو لم تكن مارجريت مستعدة لذلك . ولعلك قادر ان تقنعنى ان انت بذلت فى ذلك جهدا كافيا . فأنا على كل حال مهتم بالموضوع اهتماما فوق المألوف . استمر اذن فى عرض الفكرة ياولدى ... هيا !

. واستأنفا الكلام والمناقشة والمجادلة والافتراض الى أن توقف القطار فى محطة جانبية صغيرة . وكان الظلام قد اخذ يقترب ، فخيمت عتمة الغسق . ولما نزلوا وجدوا فى انتظارهم دارنت فى العربة الكبيرة ، تعبث يده بقبعته وهو يتقدم لحمل الحقائب . وقد شدت الى العربة فرسان بيضاوان تعرفهما جيدا ، فاحداهما طبق القشدة والاخرى زهرة الحقل . وكانت صورة العربة وفرساها وسائقها كافية لابراز احساس مفاجيء لديها هو الاحساس بالموطن

. . . الوطن بكل ما يكتنفه من اعزاز وحنين وجمال ، لا يشاركه فيه أى موضع آخر

وسألته مارجريت :

ــ هل امى بخير يادارنت ؟

واجابها الرجل بلهجته الاقليمية الظاهرة التى تنسبه عند سامعه على الفور الى اقليم جلوسستر شاير :

ــ على حالها المالوف يا آنسة

وبعدئذ انطلقت العربة بثلاثتهم . وكانت مارجريت أثناء خبب الفرسيين مدى الاميال الخمسة ، تتمنى بينها وبين نفسها الا يتخذ أبوها ذلك البيت الذى حدثها عنه فى لندن . لانها شعرت برغبتها التامة عن مفارقة هذا الاقليم ، الذى تسفيه الرياح وتراوحه بما فيه من وديان منعزلة ، وتلال عارية تختلف الوانها بين الخضرة والحمرة ، وحيث أيمـــا رجل مر بهـــم على الطريق يلمس قبعته ، لا لمســـة الذلة والزلفى ، بل عن سرور قلبى بمطالعة وجهها ووجه ابيهـــا الاثير لديه . . .

ولما طامنت الفرسان من ركضهما الى ضرب من الخبب عنـــد المنحنى الكبير ، ظهرت الدار العتيقة لعينيها ، فألقت مارجريت نظرة ثاقبة على لوفل ، لانه خيل اليها أن اتعقل يمنع ان يرى انسان تلك الدار من غير أن يطلق صيحة اعجاب

وهتفت وهى تشير الى رسم الدار من بعيد :

ــ هاى ستاو ! ان ستاو فى الواقع هو اسم ذلك التل الذى تراه هناك وفوق قمته هذا البرج . ولكننا نسمى الدار أيضـــا هاى ستاو !

وكانت الدار قائمة وراء وهده الوادى على مرتفع قليل فى الارض ، ومن ورائها انتشرت التلال وقد ارتسمت معالمها بوضوح خـــلال اشعة الغروب الاخيرة ، وكانت تلك الدار بناء مربعا متين المنظـــر مشيدا من صخور رمادية اللون ، ترى بكثرة فى تلال تلك المنطقة . وكانت فى الاصل بيتا ريفيا كبيراً بعض الشىء ثم اضـــاف اليهـــا المالكون بعد المالكين اجنحة واروقة بغير نظر الى التناسق المعمارى ، فجاء الشكل النهائى غير خال من جاذبية مصدرها الطرافة

وموقع الدار رائع ولاشك . ويبدو على بعد كبير للناظر جمال حدائقها التى تشرف من ارتفاعها القليل على بطن الوادى وقد وضعت أكنافها بألوان ناصعة رائعة يمثل كل لون منها حوضا كبيرا من احواض زهور الصيف

وابتسم كيم فرينشام لما ابدته ابنته من حماسة لمسقط راسها وقال :

ـ هذا هو مسكنى الصغير يالوفل . وهو ليس دارا عريقة توارثها الآباء عن الاجداد . فأنا لم امتلكها الا منذ أكثر قليلا من عشرين سنة

وما أن استقبلهم مينشن فى البهو حتى ابتدرته مارجريت بذلك السؤال عينه الذى وجهته من قبل الى الحوذى دارنت . وتنهد مينشن وهو يحمل الحقائب وأجابها تلك الاجابة بعينها :

ـ ليس هناك تغيير يذكر يا آنسة مارجريت . فقد عاودتها آلام الروماتيزم ، ولكنى الاحظ دائما أن وطأة تلك الآلام تشتد مع ظهور كل هلال

هلال جديد ؟ وهل ظهر فى السماء الهلال ؟ لقد فاتها أن تلاحظ ذلك وهذا بلا ريب أحد الاشياء التى يفوت الناس أن يفطنوا اليها فى لندن ...

ولما قاد مينشن الضيف لوفل الى حجرته التى سينزل بها فى الدار صعدت مارجريت مع ابيها الى الطابق العلوى . وكان هذا الصعود هو الرحلة المعتادة كلما عادا الى الدار من الخارج ، حتى ولو كان خروجهما لجولة صباحية بين خمائل الحديقة فما أن يدخلا عتبة الدار وتقع عيونهما على الدرج الكبير حتى يقول هو أو تقول هى :

ـ اوه . ينبغى ان نصعد الآن لنرى كيف حال ماما ...

وكانت هى التى قالت ذلك فى هذه المرة ، ودخل الاثنان عليها معا ، فاخترقا عرض البساط الشرقى السميك حتى مثلا امام الفراش الضخم المصنوع من حسب الموجنة ، بأعمدته الاربعة وزخارفه المنقوشة بالحفر فى ذلك الخشب الثمين ، وستائره القرمزية الحمراء المطرزة بطنف من القصب واسلاك الفضة

أجل كانت أمها فى فراشها حيث كانت تتوقع أن تجدها ، وكانت هناك شمعتان كبيرتان مركبتين فى شمعدانين عاليين من الفضة الخالصة ، تلقيان ضوءا مرتعشا فوق جبل صغير من الوسائد الكبيرة والصغيرة . ووسط هذا الجبل ارتسم وجه امرأة يتميز بصفره غير المألوف ودقة ملامحه . وكان الرأس والشعر مغطيين بطاقية من المخرمات المالطية الفاخرة ، تبدو من تحتها العينان ينبعث منهما وميض ثاقب ثابت مستقيم . وميض ورثته مارجريت ولكنها ورثته مع زيادة فى النفاذ والدقة وقوة الوقع فى النفس

وارتفع من بين الوسائد صوت رفيع يسأل بهدوء :

ــ اذن قد عدتما ؟

ــ نعم يا أماه

ــ وكيف وجدت لندن ؟

ــ رائعة أشد الروعة

ــ هذا ماقدرت أن يكون عليه رأيك . ألم تأتيا معكما بأحد من هناك ؟

فتدخل الاب فى الحديث ، وقال :

ــ اتينا بصديق لى اسمه لوفل . ومن المرجح انه يمكث معنا بضعة أيام

ــ آه .. فقد خيل الى انى سمعت صوتا غريبا يتحدث الى مينشن فى البهو ... فلى اذنان مرهفتان ... وفى ذلك تعويض لى عن ساقى الواهنتين فيما أعتقد !

وسرعان مادق بعد ذلك الطبل الهندى الذى يقرع ايذانا بالعشاء ، فخرج الاثنان من مخدع الام المريضة . وفيما هما يهبطان الدرج قالت مارجريت :

ــ يخيل الى احيانا انه ربما كان من الخير لها ان تنهض من فراشها ، وتحاول القيام بأى نوع من النشاط العادى

وأجابها أبوها وهو يعقد ذراعه فجأة بذراعها :

ــ وهذا ماطالما الح عليه الاطباء منذ زمن بعيد !

وكانت وجبة العشاء مرحة خفيفة الروح ، مع ان الجالسين الى المائدة لم يكونوا أكثر من ثلاثة . واتيحت الفرصة لمارجريت كى

تسمع بوضوح هذه المرة شيئا كافيا عن طبيعة زيارة لوفل ، وعن الغرض منها . فهو قد اخترع شيئا ، على ما فهمت من غضون الحديث ، وهذا الاختراع طراز محسن مهذب لآلة تدار بالبترول وهذه الآلة سيكتب لها على الاقل أن تحدث ثورة كاملة فى جميع نظم النقل فى سائر أقطار العالم

ولم يتحرج شخصيا فى التصريح بذلك . وفطنت منذ أول وهلة الى قدرته الخارقة على عدوى سامعيه بتفاؤله الضخم . ويلوح أن بعض الناس كان الصلة بينه وبين أبيها ، على أمل أن يقبل باعتباره رجلا من رجال المال ، أو ربما باعتباره مقامرا مغامرا ، التكفل بهذه المغامرة . وكان من الواضح منذ الآن أن اباها شديد الاهتمام بهذا الموضوع الجديد

وسأل فرينشام ضيفه ان كانت هناك آلة تجريبية أو نموذجية تمثل ذلك الاختراع الجديد فى أى مكان . فقال له لوفل أن هذه الآلة التجريبية موجودة ، ولكنها غير تامة فى الوقت الحاضر ..

ــ ولكن هل أستطيع أن أراها ؟

ــ نعم بالتأكيد تستطيع ياسيدى ان تراها اذا شئت . وهى موجودة فى برمنجهام وتحتاج الى عمل يستمر بضعة اسابيع ، قبل أن تعطى اداء لائقا يفى بالغرض

ثم كأنما ضاق لوفل بأسئلة أبيها على اعتدالها الواضح ، فانفجر قائلا :

ــ اسمع يامستر فرينشام . انى أرى بوضوح انك لا تريد أن تقدم على شىء من غير برهان عملى . فأنت مستريب بطبيعتك . ولست الومك على هذا . ولكنى أحب أن اقدم اليك فكرة عما لاقيته من مشاق فى سبيل هذا الاختراع ، واخراجه الى حيز الوجـود عمليا . فهناك أولا عقبة الافتقار الى المال الكافى . ولكن ادهى من هذا وأمر اننى كنت افتقر الى مكان مناسب للعمل . فالمكان الذى كان تحت يدى عبارة عن حجرة صغيرة يكاد حجمها لا يتجاوز حجم صوان الملابس الموجود فى بيتك ! ولم يكن تحت يدى طريق أستطيع ان أستخدمه لاجراء الاختبارات . فلابد ان يكون الطريق منعزلا . فلو أخرجت آلتى فى أى مكان قرب برمنجهام ، لتجمع حولى فى مدى

دقيقتين خلق كثير

لقد كنت طوال الوقت أقاوم التيار من جميع الوجوه . ولايمكن ان تكون لديك فكرة عن مثل هذا العناء

فقاطعه فرينشام قائلا بهدوء :

ـ لقد جربت فى حياتى السباحة ضد التيار فى ظروف كثيرة ... هذا اذن هو السبب الذى حال دون وجود ثمرة محددة لفكرتك تطلعنى عليها . انى استطيع أن ادرك هذا وأقدره تماما . ومهما يكن من شىء ، ففى استطاعتك اذا كان المكان المناسب عائقا جديا ، أن تحضر آلتك الى هنا كى تفرغ منها وتتم انشاءها ؟ وبين الاراضى المملوكة لى عدة اميال من الطرق الخصوصية التى لن يتجمع فيها الخلق مهما بدا لك أن تصنع ...

وبعد فترة صمت طويلة غمغم لوفل قائلا :

ـ انى مدين لك بأعظم الامتنان يامستر فرينشام . وسأحضر آلتى الى هنا فذلك العرض الكريم من جانبك سيسهل لى جانبا كبيرا من المصاعب . وان لم يكن لديك مانع فانى استأذنك فى السفر الى برمنجهام فى بكرة صباح غد ، كى أقوم بالتمهيدات والترتيبات الضرورية لوصول أدواتى الى هنا . ولن تطول المدة بعد ذلك فى العمل . فمتى بدأت فيه لم يستغرق منى اتمامه اكثر من عشرة أيام ، أو ربما كان أسبوع واحد كافيا اذا حالفنى الحظ . وعندئذ .. وعندئذ سترى بنفسك اننى كنت اعنى بحق كل حرف قلته لك . وسوف تقتنع بوجهة نظرى . انا واثق من ذلك ... وعلى يقين جازم !

فابتسم فرينشام ابتسامة من خبر الدنيا وعلمته التسامح مع المتحمسين وقال له :

ـ ليكن . وسوف يقوم دارنت بتوصيلك فى العربة الى شلتنهام غدا صباحا فى موعد يسمح لك بركوب قطار برمنجهام السريع من هناك . والآن ان كنت تشعر بمثل ما اشعر به من الاجهاد ، فلنذهب الى مخادعنا لنلتمس فى أحضان النوم راحة من عناء

الفصل الثانى

رحلة

وفى صباح اليوم التالى تولت مارجريت بنفسها قيادة العربة الصغيرة لتوصيل لوفل الى شلتنهام . وكان المفروض أن يقوم دارنت بهذا العمل كما قال والدها بالامس ، لولا أن أمها نبتت لديها الرغبة على حين غرة فى التجول بين أزهار الحديقة . وتجوالها منذ مرضت مرضها هذا الطويل كان دائما فى مقعد ذى عجلات . وهى لا تعهد بمهمة دفع المقعد الا الى دارنت . وهكذا أصبح على عاتق مارجريت ان تقود المركبة الصغيرة حاملة الضيف الشاب ليلحق القطار

ولم تكن مارجريت لتبالى هذه المهمة فهى تحب القيادة . ثم انها ستجد الفرصة سانحة أمامها لقضاء حاجات شتى فى بلدة شلتنهام فهذه البلدة حافلة بالحوانيت والناس . وهى من جهة ثالثة تحب أن تقوم باطلاع الغرباء على معالم المنطقة ، وأن ترشدهم الى المناظر الجميلة والبقاع الطريفة ، وأن تنقل اليهم ان استطاعت شيئا من تلك الحماسة العميقة المسارب فى نفسها لذلك الريف الحبيب اليها

ولكن هذا الغرض الاخير لم يكن من اليسير عليها تحقيقه هذا الصباح وهى فى صحبة لوفل . لانه كان فى شغل عن حماستها بما لديه من حماسة شديدة لمشروعاته . وقد فطنت الى ذلك بعد أن تلقت منه اجابات مقتضبة يسيرة ، تعليقا على ملاحظاتها بصدد المناظر والمشاهد التى يمران بها ، فقالت له بصراحة :

ـ أعتقد أنك لا تهتم كثيرا ولا قليلا بهذا كله !

ـ بل اهتم يا آنسة فرينشام كثيرا بما تطلعيننى عليه من المشاهد الجميلة ، وان كنت مشغولا فى أعماق نفسى بأمور اخرى .

فلا تظنى انى غير مستمتع بما حولى من جمال . انه ليروقنى ...
كثيرا جدا . بل انى اكاد أجن من فرط السعادة . فلم يسبق لى أن
شعرت بمثل هذه السعادة فى حياتى كلها ...

ـ لماذا ؟

فزاد التفاته نحوها وقال :

ـ لانى اعلم اننى بعد وقت وجيز جدا سأنتهى من اقناعى لوالدك بتبنى اختراعى الجديد ..

ـ حدثنى عنه ... بألفاظ وعبارات فى مقدورى أن افهمها

وكان هذا هو الموضوع الذى يطيب له أن يخوض فيه . ومتى بدأ تدفق الكلام من فمه فلا يكون ثمة سبيل الى وقفه . ووجد لزاما عليه فى هذا الصدد أن يعود بها الى البداية ، ويصور لها طفولته الاولى وصباه فى البيت وفى المدرسة ...

وكان لوفل من أهل الاقاليم الوسطى ووالده رئيس عمال فى مصهر وهو شخصيا كان صبيا يتعلم صنعة نفخ الزجاج فى احد المصانع . وظل مثابرا على هذه المهنة حتى سن السابعة عشرة ، وفى تلك السن ضاق ذرعا بهذه المهنة التى تخنق أطماعه العريضة ، فقاده طموحه الى دراسة هندسة الآلات ، ومنذ ذلك الحين وهو يكافح فى هذا الميدان حتى الوقت الحاضر . وقد بلغ الآن السابعة والعشرين ...

ـ ... وفى هذه السنوات العشر ما اكثر الليالى التى بتها على الطوى ، لاشترى بثمن طعامى اداة باهظة الثمن لا غنى لى فى ابحاثى عنها . وكنت استيقظ كل يوم فى الرابعة صباحا ، لاعمل فى تجاربى الهندسية قبل أن اتوجه الى عملى الرسمى فى مصنع الزجاج . قضيت هذه السنوات العشر فى كفاح قاس . ولكن اذا أعطيتنى عشر سنوات أخرى فانى زعيم لك أن تطبق شهرتى الآفاق . أنا واثق أن هذا اليوم سيجىء حتما !

ولما وجدها لا تعلق على ذلك الكلام بشىء استطرد قائلا :

ـ أعلم أنك تظنين بى الغرور والادعاء . وهذا ظن لفيف كبير من الناس بى . ولكن لا حيلة لى فى هذا . وشعورى بما أقول شعور صادق لا تزوير فيه ولا ادعاء . ثم لا تنسى أننى ما كنت لامضى فى كفاحى كما فعلت لو لم تكن لدى هذه الثقة الضخمة بنفسى

وكان ذلك النهار يبشر من بدايته بارتفاع الحرارة . فها هى ذى التلال وهما يقبلان على مشارف شلتنهام تتوارى عن الاعين وراء ضباب فى لون اللبن . وعرضت عليه ان تلقاه بالعربة عند المحطة حين عودته فى المساء . ولم تنسه حماسته أن يسألها على سنة المجاملة المهذبة :

ـ اليس فى ذلك اثقال شديد عليك ؟

فاجابته قائلة :

ـ كلا . . . فهذا اهون بكثير من العودة الآن الى الدار وارسال دارنت بالعربة بعد الظهر . وفى استطاعتى اذا قضيت النهار هنا أن انتقل بين الحوانيت عسى ان أجد شيئا أحب ان اقتنيه . ولى أخت اصغر منى اسمها ليلى تطلب العلم فى مدرسة هنا . فلن يثقل على قضاء سحابة النهار على وجه ممتع . أؤكد لك هذا

وبعد أن ركب قطاره السريع ذهبت بالعربة والجواد الى احد الاسطبلات ، ثم أخذت تتمشى فى الشارع الرئيسى الذى يمتاز بعقود من البناء على جانبيه تتيح ظلا رطيبا تحت اقواسها . وذكرتها واجهات الحوانيت بحوانيت لندن وواجهاتها ،وصعب عليها ان تصدق انها كانت هناك منذ اربع وعشرين ساعة فقط . فان كل ابهة ذلك الاسبوع الرائع ، وذلك الحشد الهائل من التزاويق والزخارف ، بل ومنظر الملكة فيكتوريا العجوز المسكينة فى عربتها الملكية الفخمة . . . كل هذا قد بهت وأصبح من مخزونات ماض لا تكاد تتبينه العين

وبعد الظهر توجهت لزيارة ليلى فى مدرسة خصوصية راقية لبنات الاسر الكبيرة عند مشارف المدينة . وهى بعينها المدرسة التى تلقت هى نفسها دروسها فيها منذ سنوات . والحق انها كانت تلميذة صعبة المراس ، لقيت المعلمات عناء شديدا فى حملها على احترام النظام والمثابرة على الدرس . ووجدن عناء اشد فى حملها على الاقلاع من عاداتها المثيرة لاستنكارهن الشديد . فقد كانت ولم تزل تمشى مشية الرجال ، وتحدق تحديقا ثابتا قاسيا فى الغرباء ، ولا تبالى أن تبدى رأيها الصريح فى شىء !

أما ليلى فهى على خلافها فى كثير جدا من الصفات . فهى ظاهره الانوثة بصورة ترضى معلماتها الموانس ، ذات أسلوب دمث فى التعبير

والسلوك والمشى . وهى أيضا اجمل بكثير من اختها الكبرى ، وأكثر بشاشة وميلا للمزاح . وكانت الناظرة تقول عنها :

ـ ليلى فرينشام اجمل فتاة فى شلتنهام . ولو ان والدها قام بما ينبغى عليه نحوها لتزوجت زواجا مرموقا جدا !

وتلطفت الناظرة فسمحت للفتاتين بتناول الشاى معا . فوجدت مارجريت اختها ليلى مهتمة جدا بسماع ما ترويه لها عن مشاهداتها فى اسبوع اليوبيل الذهبى للملكة فى لندن . ولما فرغت مارجريت من روايتها ، مطت ليلى شفتيها وقالت :

ـ لم يحسن أبى صنعا اذ أخذك معه ولم يأخذنى . فانا واثقة اننى كنت سأستمتع بذلك كله عشرة أضعاف استمتاعك . فأنت دائما هادئة ولا أعتقد انه يمكن أن تهتز أعماقك استمتاعا بشىء . واعتقد أيضا انك راضية كل الرضا بمواصلة الحياة على الاسلوب القديم فى هاى ستاو ، اليس كذلك يا مارجريت ؟

فأجابتها بكل هدوء :

ـ هذا صحيح . ولكنك فيما أعتقد لا تحبين كثيرا حياة الريف !

ـ بل انى أمقتها

ـ اذن سيسعدك أن تسمعى منى أن والدنا يفكر فى اتخاذ بيت فى لندن فى الموسم القادم

فصفقت ليلى بيديها فى جذل شديد وصاحت :

ـ لندن ؟ لندن ! أوه يا مارجريت ، هل هذا صحيح ؟ وستكون ثمة استقبالات ومراقص وارتياد للمسارح و . . .

ثم كفت عن الكلام فجأة وسألتها فى انتشاء :

ـ خبرينى بربك : الم تقع عيناك فى لندن على رجال ذوى وسامة وجمال ؟

ـ لم أجعل همى فى ذلك

ـ ولكن ألم تقع عيناك على أحد ؟

ـ لم أر هناك فيما اعتقد احدا يضارع ابى وسامة وجمالا

فهزت ليلى كتفيها فى استياء وقالت :

ـ اوه . انت كعادتك تحاولين الظهور بمظهر البراعة .. وأنا اكره هذا ! اتعرفين ان هناك رجلا وسيما وسامة مدهشة واننا نراه

كل يوم تقريبا ... لانه يتمشى على طول الطريق خارج هذه المدرسة فى أوقات منتظمة جدا ؟ واظن أنه نقيب فى فرقة الفرسان . وله اشهى عينين وشارب . ومنــذ أيام كنت أطــل من الشرفة فرآنى وابتسم ....

وبعد ساعة استقبلت مارجريت لوفل عند وصوله . وكانت روحه المعنوية لم تزل عالية . وكذلك كانت معنوياتها ايضا . ولكنهما لم يكثرا فى رحلة العودة من الحديث مثلما أكثرا منه فى رحلة الذهاب . واطبقت العتمة عليهما قبل ان يصلا الى هاى‌ستاو بوقت طويل ، وظهر الهلال عاليا فى قبة السماء ، فبدت حقول الغلال المترامية كأنها بحار من الفضة

وبعد فترة صمت طويل ساد بينهما قالت له :

ـ انك لم تزل تفكر فى اختراعك هذا ، اليس كذلك ؟

فقال بعد شيء من الروية :

ـ بلى . افكر فيه ... وانت فيم تفكرين ؟

فأجابته ببساطة وصراحة اذهلته :

ـ فيك انت !

وبعد يومين وصلت أدوات عمله من برمنجهام فى عدة صناديق كبيرة ، فانكب على العمل فورا بهمة ونشاط عظيمين . فكان يبدأ العمل عادة قبل الساعة السادسة من الصباح ، ويظل مثابرا عليــه الى وقت العشاء ، باستثناء فترتين قصيرتين للافطار والغذاء . وكان حريا أن يستمر فى العمل بعد العشاء ايضا لو أن فرينشام ترك له فرصة لذلك

وفى كل ليلة بعد تناول القهوة كان يدلى ببيان عن عمله فى ذلك اليوم ، فى لغة فنية حافلة بالاصطلاحات . فكان من العسير على مارجريت ووالدها أن يدركا على وجه الدقة مراده بالضبط . وكان وميض عينيه يزداد توقدا وهو يتحدث عما أحرزه من تقدم فى يومه فكانت مارجريت تشعر أن بداخله حيوية تمده بقوة جاذبية غريبة

وذات يوم اشتدت الحرارة حتى انه بعد الظهر وقع فريسة للجو الخانق ، فانهارت مقاومته وسقط بين ذراعيها وهى واقفة وراءه

ترقب ما يصنع . فاضطرت الى حمله بين يديها حملا بغير مساعدة من أحد الى خارج العريشة ،وأرقدته على أرض الفناء الداخلى لحجرة الالبان وحظيرة البقر . فلما أفاق من الاغماء بعد ذلك ظهرت عليه دهشة بالغة وقال لها :

ـ لابد انك قوية قوة خارقة

فأجابته ببساطة قائلة :

ـ نعم . أنا قوية جدا !

واحمر وجهها احمرارا شديدا تحت نظرة الاعجاب السافر التى طالعها بها ، ثم استطردت وانفاسها تلهث قليلا :

ـ لقد اسرفت على نفسك فى مواصلة العمل رغم حرارة الجو . ويجب عليك الان أن توقف العمل برهة ... على الاقل الى أن تتلطف أنفاس الهواء بعض الشىء

وكم ادهشها أنه انقاد لرأيها على الفور ، وأجابها وهو مستمر فى التطلع اليها بذلك الاعجاب الصريح :

ـ سأعتبر نفسى فى اجازة طول يوم غد اذا شئت ذلك . وربما اذا كان الجو معتدلا ، واذا ... اذا تكرمت أنت ذهبنا معا لتريني المواضع الطريفة فى هذه المنطقة . فأنا واثق أن للطبيعة فى هذا المكان مكامن كثيرة للسحر والطرافة

وكانت مسرورة جدا لماتتوقعه فى تلك الرحلة من متعة . ومسرورة جدا لانه هو الذى اقترحها بادئا . وكم كان غريبا فى نظرها ايضا أن يعلق بهذه الدهشة على قوتها البدنية الفائقة .حتى أنها الان فجأة شعرت بقوتها تربو وتزداد فى داخلها كأنها نافورة يثور ماؤها بحيث أحست بدمائها تضطرب بتلك القوة الفوارة فى عروقها

وواجهته بنظرات عينيها الثاقبة المستقيمة التى لا تعرف خوفا ولا ترددا ، وقالت بثبات :

ـ سنتجول فى انحاء التلال . ونتجاوز تل ستاو الى نورث ليدج ثم نعود مخترقين تل ستاو مرة اخرى ...

ـ سنذهب حيثما راق لك الذهاب

ولاول مرة رات فى عينيه ذلك الوميض العجيب من غير ان يكون تفكيره منصبا على آلته التى تدار بالبترول

وفى تلك الليلة دار حديث طويل بينها وبين والدها . فقــد صعد الوالد الى حجرتها بعد ان اوت الى فراشها . ودار الحديث بينهما فى البداية حول لوفل . فقال :

ـ اخبرنى مينشن ان الحرارة كانت شديدة الوطــأة حتى عجز صديقك عن احتمالها بعد الظهر . ولم يدهشنى هذا . فلا ينبغى أن تتركيه يفرط فى العمل فى هذا الحر ... وبهذه المناسبة ، ما رايك فيه يا مارجريت ؟

ـ أستلطفه

ـ ان فكرته عن نفسه فكرة رائعة كما تعلمين

ـ هذا صحيح

فابتسم وقال لها :

ـ أنت طبعا لا يضيرك هذا ... ولكنى اخشى أن أمك تشعر فيما يبدو بنفور من نحوه

ـ لم أكن أعلم أنها قابلته ولو مرة واحدة

ـ وهى فعلا لم تقابله . ولكنها فقط راته من بعيد حينمــا كان دارنت يدفعها فى المقعد ذى العجلات بين مماشى الحديقة . ولــكنها بالطبع كما تعلمين ذات بدوات خاصة . تكره أو تحب بغير أسباب

وسكت قليلا ثم قال فى اسى :

ـ ولا اظن ان حالتها الصحية آخذة فى التحسن ... ولو كنت أعرف ما الذى يمكن أن يدخل السرور عليها لما ادخرت فى سبيل ذلك وسعا ولا نفقة . فالواقع يا مارجريت اننى بدأت اشعر بالرغبة فى الاستقرار ، لاننى جمعت من المال ما اريد وطويت صفحة المغامرات من سجل حياتى . والبيت هو المكان المناسب لرجل فى مثل سنى . فانا الآن فى الرابعة والخمسين كما تعلمين . ولكن البيت ...

وقطع كلامه وألقى اليها بنظرة خاطفة ثم قال :

ـ اظنك تعرفين ماذا أعنى

وردت على نظرته بنظرة فهم وعطف سريعة ولم تتكلم . فالموقف كله كان يبدو حافلا بالسخرية بحيث يصغر ازاءه كل تعليق ... فالمرأة التى تزوجت من رجل كابيها ، لا تكترث فتيلا سواء جاء الى البيت أو غاب عنه الايام والاسابيع . وسواء أخذها معه فى أسفاره أو

خلفها وراءه . فلا تسأله أين هو ذاهب ولا من اين جاء ، ولا ينهض الالم عذيرا لها فى سقوط المبالاة ، ولكن فكرة الالم حملت مارجريت على ان تقول :

ـ أعتقد أن أمى تعانى من الآلام اكثر بكثير مما نتصور

فأجابها أبوها بحماسة :

ـ هذا ما كنت ميالا على الدوام الى اعتقاده ، ولكن الطبيب فرجيسون يؤكد لى دائما انها لا تشكو شيئا . وانما هى أعصابها .. ويؤكد لى ايضا انها لو جمعت أمرها وحملت نفسها على مغادرة الفراش والاختلاط بالناس لتحسنت حالتها تحسنا عظيما . وما كنت لاقول لك هذا كله لولا أن ملاحظة لك منذ بضعة أيام دلتنى على أنك ستنتهين الى هذا الراى بنفسك

ـ وما القول فى الروماتيزم ؟

ـ فرجيسون يقول ان هذا كله من تأثير الاعصاب ، ولكن لا تظنى بالطبع اننى أحاول التقليل من آلامها بهذا القول ... فكل ما هناك اننى اتمنى لو بذلت مجهودا صادقا للمقاومة . وانا مستعد للتضحية باى شيء فى سبيل اذكاء اهتمامها بأى نوع من انواع الهواية أو التسلية ، وكان هذا هو الدافع الاول لى على اتخاذ بيت فى لندن ...

واستطرد وهو يضع يده الكبيرة بحنان فائق فوق كتفها :

ـ لقد بذلت خير ما فى وسعى فى سبيل اقناعها فلم افلح . ولا أدرى ان كان لك اى تأثير عليها على كل حال أرجو أن تحاولى انت ايضا . وانت تعلمين طبعا ماذا أعنى

فهزت راسها . وعاد الى وجهه الاشراق وهو يقبلها ويتركها لتنام ولكنها ظلت تفكر فى امها ، ولم تفهم كيف أمكن تلك الام الا تهتم بذلك الاب . واخذت تتنسم فى الهواء رائحة الصابون والسيجار المعطر التى يتركها ذلك الاب الفخم وراءه حيثما يكون . فهو يتألق بالنظافة والوسامة والقوة ، حتى انه يبدو ملكا بين سائر من عرفتهم من الرجال . وخطر لها انه ربما كان فى سنوات كفاحه الاولى شبيها بلوفل . وانه لو قدر للوفل النجاح لاضفى عليه ذلك بهاء شبيها ببهاء أبيها ورونقه ...

الفصل الثالث

تحت المطر

انهمر المطر مدرارا فى صباح اليوم التالى فكان ذلك مثار ضحك كثير بينها وبين لوفل على مائدة الافطـــــار . ولـما جلسا فى قاعة الاستقبال حاولت أن توحى الى نفسها بانها تشعر بخيبة أمل غير عادية . ونهضت الى المعزف فأدت عليه قطعة موسيقية بطيئة الحركة هى سوناتا ضوء القمر ، وجاء هو فوقف معتمدا بمرفقيه على المعزف. وصح عندئذ بينها وبين نفسها وفى هدوء أنها تستلطف هذا الشاب أكثر مما استلطفت اى شاب آخر فى حياتها كلها . ولاحظت فوق هذا أن وجوده لا يشعرها بأى توتر عصبى ، بل انها على العكس تحسن العزف تحت نظراته أكثر من مألوف عادتها . ولـما اتمت القطوعة دارت بسرعة فوق المقعـــد الدوار ، ورفعت اليه وجهها بتحديقها الصريح

واتجه مجتازا القاعة الى النافذة ، واخذ ينظر الى المطر المنهمر بلا انقطاع . وكان المنظر حينئذ رائعا ، وتربة الأرض والتلال تبدو وكأنها تشرب الماء بشغف . والاشجار المثقلة بثمارها تهتز أعطافها وهى تتقبل منحة السماء . . .

وسمعته يقول من غير أن يحول نظره اليها :

ــ لشد ما أحب المطر !

فقالت على الفور :

ــ أنا لا أحبه عندما يحول بيننا وبين الخروج

ــ وهل من الحتم أن يحول بيننا وبين الخروج ؟

وبعد بضع دقائق كانت تواجهه وهى مرتدية معطفهـــا الابيض اللامع الواقى من المطر ، وتقدم اليه مظلة سوداء :

ـ هذا ماكنت أريد أن أقدم عليه ولكن لم يخطر ببالي أنكتحب السير تحت المطر مثلى . . .

وبينما هما يسيران فى هذه الوحدة تحت المطر حدث مرة أو مرتين انه تناول ذراعها ليعينها . فكان يضغط عليها

وخفت حدة المطر برهة وهما يجتازان منعطف النهر ، ويخوضان اعشاب البرية موغلين نحو تل ستاو الكبير . وتل ستاو يبلغ ارتفاعه نحو ستمائة أو سبعمائة قدم . وان كان يبدو اعلى من ذلك كثيرا ، عندما ينظر اليه الانسان من نوافذ الدار

وأوحى اليهما تراخى شدة المطر ان يشرعا فى الصعود . ولكن فى منتصف المسافة عاد المطر الى الانهمار بشدة فاسرعا يجريان للاحتماء منه بين مجموعة من أشجار البلوط نابتة على نتوء فى التل . وقالت له وهى تجذبه من يده :

ـ أنا أعرف مكان هذه الاشجار جيدا ، وكثيرا ما كنت ألعب بينها أنا وبومى ونحن طفلان

فسألها متعجبا :

ـ بومى ؟

ـ نعم بومى . انه أخى . واسمه الحقيقى بوم روى . ولكننا كلنا نناديه بومى . وكان منذ نشأته غير قوى البنية ، ولذا الحقه والدى بعمل فى كاليفورنيا حيث المناخ معتدل دافىء . فهو فى سان فرنسسكو فى الوقت الحاضر . . فى السلك القنصلى

ـ اظنكما كنتما لا تفترقان ؟

ـ كنا دائما معا . وكان أشقى وقت مر على فى حياتى هو الفترة التى أعقبت رحيله . . .

وأسرعت تخترق مسافة بين الاشجار ، ثم أشارت الى جذع شجرة ضخمة رأتها هناك :

ـ أنظر . هاهى ذى الحروف الاولى من اسمينا . نقشناها يوم عيد الميلاد الثامن لبومى بمدية تلقاها هدية فى تلك المناسبة . ولا بد أنى كنت يومئذ فى الخامسة من عمرى . وتستطيع أن ترى بنفسك كم كنا صغيرين ، حتى أن يدينا لم تصلا الى هذا الارتفاع

وعلى ارتفاع نحو ياردة واحدة فوق سطح الارض رأى لوفل أربعة

احرف كبيرة غير جيدة النقش : ب . ف ، م . ف . ونظر لوفل الى الحروف الاربعة بامعان ثم أخرج بسرعة غريبة مدية من جيبه وسألها باسما :

ــ هل يجوز لنا أن نضيف الحروف الاولى من اسمينا في هذا اليوم ، أم أن ذلك يكون امتهانا لقدسية الذكرى ؟ فلننقشهما فوق الحروف السابقة حتى تستطيعي أن تحددي مبلغ نمو قامتك منذ ذلك التاريخ ... أتسمحين لي ؟ دعيني أنقش حرفي اسمي نيابة عنك

وأحست بسخونة الدماء في عروق عارضيها وهي تقول :

ــ كما تريد !

وأخذت ترقب أصابعه وهي تتحرك فوق جذع الشجرة . وسرعان ما أتم نقش م . ف . ثم تحتها مباشرة ف . ل . ثم قال لها :

ــ اسمي فيليب . واظن بهذه المناسبة سأناديك في المستقبل مارجريت . اليس كذلك ؟

فأجابته على الفور :

ــ وهو كذلك يا فيليب !

فنظر اليها نظرة ثاقبة كأنما اخذ على غرة وقال :

ــ هيا بنا يامارجريت . هيا نتسلق التل ، فقد تراخت شدة المطر مرة أخرى ...

وكانت شدة المطر قد تراخت فعلا ولكنه عاد الى اعنف من شدته الاولى قبل أن يصلا الى القمة . ومن القمة لم تقع عيناهما على منظر سوى منظر الوادي الممتد ينصب فوقه المطر . وكان برج المراقبة الذي بني قديما ليكون من علامات الطريق التي تشاهد على مسافة كبيرة جدا من جميع الجهات ، ينهض شامخا فوق رأسيهما كالديدبان الاسود

وحدثته عن تاريخ ذلك البرج ، وكيف أن سيدا من رجال القرن الثامن عشر جعل منه مرقبا للنجوم ، لان ذلك السيد كان شغوفا بعلم الفلك :

ــ ان داخله طريف جدا . وهو طبعا داخل حدود ممتلكاتنا وان كنا لا نجني منه أية فائدة . ولو كنت ادرى سلفا أننا سنأتي الى

هنا لجئت معى بالمفتاح
فأخذ يدور حول البرج كأنه حيوان متأبد . او هذا على الاقل ما خطر لها وهى تراه يغوص فى الطين الى عقبيه ويواجه المطـــــر والرياح ، وكأنه لا يحفل بها . وسمعته يغمغم :
ـ كنت احب أن ارى ماذا يبدو من الداخل
فقالت :
ـ للأسف لم افكر فى احضار المفتاح
وبعد قليل سمعته يناديها من الجانب الآخر :
ـ مارجريت ! استطعت أن افتح الباب . فتعالى وانظرى !
فجرت تدور حول البرج ، وبعد لحظة كانا معا داخل البرج المظلم الذى تفوح منه رائحة الرطوبة وقد اغلق الباب وراءهما لمنع تسرب المطر . وقالت :
ـ لم آت الى هنا منذ زمن طويل . انقضت سنوات طويلة منذ آخر مرة كنت فيها هنا
ـ مع بومى فيما اظن ؟
ـ نعم
فواجهها وهو يقول لها :
ـ وهأنتذى الان هنا معى انا
فأجابته ببساطة وهى تسبقه الى الداخل :
ـ هناك خزانة صغيرة فوق هذه الحجرة كان ذلك العجوز يجلس فيها امام منظاره المقرب
ـ هل كان مسنا ؟
ـ لعله لم يكن مسنا فى البداية . ولكن هـذه الهواية استمرت زمنا طويلا
ـ لابد انه كان انسانا غريب الاطوار !
ـ نعم وهناك اساطير كثيرة تدور حوله على السنة سكان المنطقة
وصعدا معا السلم العتيق الذى كان ينخره السوس ، الى ان برزا اخيرا فوق سطح دائرى تغطيه الاقذار والتراب بطبقة كثيفة . وبعد لحظة صمت قال فيليب :
ـ لم اعد استطيع ان اطرد من ذهنى صورة هذا الرجل الذى عاش

منذ زمن بعيد ، وهو يتسلق التل فى الليالى الصافية التى تسطع فيها النجوم ، كى ينعم النظر فى السماء من وراء منظاره المقرب . . . ياله من عمل موحش !

ـ يقولون انه لم يكن دائما بمفرده ؟

ـ حقا ؟

ـ هناك كما قلت لك أساطير كثيرة تدور حوله وحول حياته . ويقولون أنه كان من عادته أن يختطف الفتيات الحسان من جميع القرى المجاورة ويأتى بهن الى هنا فى الظلام

ـ يختطف . . . البنات ؟

ـ نعم . واظنهن كن من فرط الفزع منه ومن الظلام لايجسرن على القائه من فوق التل كما كنت حرية أن أفعل لو كنت فى مكانهن !

وكانت تتكلم بهدوء شديد وبجد شديد . ومع هذا فكان تعليقه عبارة عن ضحكة حادة ترددت خشونتها فى المكان الساكن ، ثم قال وهو يتحسس عضلة ذراعها فى الظلام :

ـ اظنك كنت تفعلينها . وأنت قديرة على ذلك !

ومشت خطوات فى أرجاء المكان ولكنها تعثرت بذيل ثوبها الواسع فتمزقت اجزاء منه . وأخذا يضحكان فى الظلام لانها كلما ارادت تخليص ذيل ثوبها من قدميها تمزقت أجزاء منه . وانحنى هو ليحاول تحسس الاضرار التى وقعت ، فخيل اليها أن ضجة الرياح والمطر قد زاد وقعها فجأة على اذنيها !

واثارت حركة يديه فى الظلام التراب الذى تراكم على الارض منذ سنين فملأت انفها رائحة غريبة هى رائحة الزمن ، ممزوجة على نحو ما برائحة الاثم . وكأنما كانت الأعمال الغامضة التى ارتكبت منذ أكثر من قرن فى هذا المكان عالقة بترابه بل ممتزجة بطلاء جدرانه

وبعد قليل عاد الى الحديث عن آلته البترولية . واخذت تصغى لما يقول وقد ازدادت حواسها ارهافا . كأنها استشعرت شيئا من العداء أو التقابل بين حماسته وبين رائحة التراب المحيط بهما . كان ذلك التقابل رمز للمعركة الناشبة بين الخير والشر فى العالم . واحست بنفسها وقد انضمت الى صفه فى تلك المعركة بحماسة

شديدة . وفى الوقت نفسه كانت تحدث نفسها من غير مبالاة ، شأن عقلها الناضج العملى دائما بأنه بعد أيام معدودة سيكون قد أتم عمله ، واعد آلته الجـــديدة للعرض على والدها . وبعدئذ سيعود بالطبع الى برمنجهام

بل انه اعاد على سمعها ما فكرت فيه بألفاظ شفتيه ، فقالت له :

ــ اتعود الى برمنجهام حتى ولو قرر أبى أن يتولى انتاج اختراعك وتمويله نهائيا ؟

ــ حتى لو حدث هذا . فلا اظن انى استطيع أن استقر بصفة نهائية فى داركم . أليس كذلك ؟

ــ لا اظن ذلك ممكنا

ويظهر أن شيئا ما ــ ان حقيقة وان تخيلا ــ فى لهجتها ونبرة صوتها دفعه الى أن يسألها :

ــ اتتمنين لو اننى استطعت البقاء فى بيتكم باستمرار ؟

فأجابته ببطء كأنها تفكر فى الأمر جديا :

ــ لا ادرى . فمنذ رحل يومى وانا اشـــعر بالعزلة الشديدة والوحشة احيانا كثيرة . . . ولكنى استمتعت بصداقتنا كثيرا

ــ وكذلك انا

وفجأة طوقها بذراعيه القويتين . فقاومت قليلا . ثم اطبقت شفتاه على شفتيها فشعرت بدفء وفورة شديدين ، الى حـــد الالم . ومع هذا كان كل ما خطر بذهنها ان هذه القبلة مسحت كل الآثام التى ترين رائحتها على البرج العتيق من حولهما ، حتى لم يعد لبقـــايا هذه الآثام أثر

الفصل الرابع

عاصفة

فى ليالى الصيف الطويلة التى أعقبت ذلك اليوم المطير ، امسى من عادتها أن تجلس الى النافذة المفتوحة فى قاعة الاستقبال ، عندما يكون فيليب ووالدها منشغولين بالكلام والمناقشة حول مشروعهما المشترك. وكانت تلك الامسيات رقيقة الانسام ، رطبة الهواء هادئة . وكانت جميع الروائح الزكية التى تنبعث من اشجار الحديقة المترامية تتوافد الى مكانها من النافذة المفتوحة ، وتمتزج فى خياشيمها برائحةالطباق الذى يتصاعد دخانه من حيث يجلس الرجلان اللذان تحبهما ...

وكان يشق عليها ان تعرف على سبيل القطع ايهما احب اليها ... ذلك ان حبها لفيليب بدا لبصيرتها الواعية وكانه قد استشرى فى كيانها ، حتى امتص وتمثل وتغذى على كل حب آخر أكنه قلبهـا لانسان من البشر ...

كانت سعيدة ضربا من السعادة بلغ حد الروعة . حتى أنها كانت تغيب عن الوجدان الواعى بما حولها من تفاصيل الواقع المحسوس . وعلى هامش حلمها الجميل كانت تتردد أنغـام كموسيقى مواكب التهليل ... ولم تكن تلك الانغام الا مقاطع من عبارات الرجلين ترتفع طبقة أو طبقتين فوق المستوى العادى لحديثهما المتصـل . فيقول أبوها :

ـ على رسلك يا لوفل ، يا ولدى ...

وعندئذ يطغى على صوت ابيها قول فيليب فى حماسة :

ـ انا واثق من ذلك يا مستر فرينشام . واثق تمام الثقة !

وكانت تعلم انها تريده أكثر مما خيل اليها . او اعتقدت انها يمكن أن تريد شيئا او انسانا فى يوم من الايام ! وكانت حرية ان تذهب الى

أبيها وتنفض بين يديه الحقيقة المجردة ، كعادتها منذ كانت فى كل شأن من شئونها ، لولا ان فيليب كان له فى ذلك رأى آخر

وكان موقفه غريبا فى نظرها : لانها كانت تتوقع منه أن يبدى من الحماسة واللهفة على اتمام هذا الامر بينهما ، مثل الذى يبديه من الحماسة واللهفة بسبب آلته التى تدار بالبترول . ولكنه لم يكن متحمسا لهفان . بل كان هادئا وحذرا الى حد كان يسخطها ويثير غضبها . وكانت حجته التى أدلى بها :

ــ انى أرى على العموم أنه من دواعى الحكمة الا نخبر والدك بشىء فى الوقت الحاضر على الاقل ... ولا نخبر أحدا على كل حال بما بيننا . فان أسرتك ليس من المرجح أن تطير فرحا بمثل هذا النبأ . فليس هناك ما يدعو اذن لاستعجال ظهور العراقيل وهبوب الاعاصير

ــ ولكن ابى يحبك حبا عظيما . أنا أعلم هذا !

ــ نعم يحبنى حب الحامى لمن يلوذ بكنفه ويرعاه . ولكنه ليس حب الرجل لشاب يرتضيه زوجا لابنته

ــ ولكنه سيحبك هذا النوع من الحب ويرى فيك زوجا لائقا بابنته اذا علم اننى اريدك لى زوجا

فهز رأسه وقال :

ــ كلما عظم حبه واعزازه لك يا مارجريت كان ذلك ادعى لكراهته أن يراك تلقين نفسك هدرا على عنق مخترع مفلس ...

ــ ولكنك لن تظل مفلسا على الدوام . أليس كذلك ؟

ــ انا واثق اننى لن اكون مفلسا على الدوام . ولكن ليس بين يدى الآن ما اعزز به موقفى ومطلبى . وهذا هو السبب فى انى أريد أن انتظر الى أن اتم آلتى ، واعرض عليه نموذجا . وعندئذ لابد ان يدرك حقيقة مواهبى . لن يكون له من ذلك مناص

وذات صباح من أيام شهر يولية ، اذ هى منهمكة فى مراقبة فيليب وهو يعمل تحت العريشة ، نادتها امها من شرفتها . فصعدت اليها وقربت من مكانها مقعدا مصنوعا من القش وقالت وهى تجلس اليها :

ــ يبدو عليك تحسن ظاهر يا أمى

ــ حقا ؟

ــ نعم . انت أحسن بكثير . وانا واثقة انك استفدت كثيرا من

الخروج الى الهواء الطلق فى الشرفة اليوم . وليتك تنهضين فتغادرين الفراش كل صباح كما فعلت اليوم !

ـ اوه !

ـ انا وبابا نعتقد كلانا ...

وتوقفت عند هذا الحد لأنها احست بالتسرع وبأنها اساءت معالجة الموضوع ، وانها أندفعت فى مفاتحة امها تلبية لرغبة أبيها بغير كياسة ولكن ذهنها فى الواقع لم يسعفها كثيرا لانها لم تكن فى هذه الايام تفكر فى امها اطلاقا . بل ولا فى أبيها ايضا . لأن صورة فيليب هى التى كانت مسيطرة دون سواها على تفكيرها كله ... صورة فيليب وهو واقف أمام مشروع اختراعه ، وقد شمر قميصه وأشعة الشمس تنعكس على عضلاته القوية الداكنة

وتكلمت امها فى موضوعات شتى فترة من الوقت ثم قالت :

ـ انا اعرف جيدا يامارجريت وجهة نظرك انت وابيك بشأنى والآن اما وقد رايت انت من اللائق ان تقدمى الى النصح ، فلعلك تبدين استعدادا لتحمل النصح الذى ارى لزاما على أن اسديه اليك

ولم تجب مارجريت . لان ذهنها لم يسعفها بأى معنى واضح محدد لذلك الكلام . فكل ما فى ذهنها من الوضوح منصب على تلك الصورة الفريدة التى لا شغل لها بصورة سواها

واستطردت امها تقول بهدوء :

ـ ونصيحتى هى ... دعى مغازلة ذلك الرجل لوفل !

واستيقظ ذهنها دفعة واحدة :

ـ مغازلة ؟ ... هل قلت مغازلة ؟

ـ هذا ما قلته

ـ لم تكن نتغازل !

ـ اذن ماذا كنتما تصنعان حتى الآن ؟

لا جواب !

ـ انى أحذرك يامارجريت من هذا الرجل . فأنا أفهم الرجال ، وان كنت قد لا تصدقين ذلك . فهذا الرجل لا يعنيه شىء فى الدنيا سوى طموحه ومطامعه

ـ ليس هذا صحيحا فانت لا تعرفينه . وأنا لا أستطيع ان احتمل

سماعك تتحدثين عنه على هذه الصورة ! وانا لا أبالي بما تقولين . . . فهذا لن يقدم ولن يؤخر !

ـ آه . . . هذا ما قدرته . اذن فكل شيء متفق عليه بينكما ؟

ـ نعم !

ـ اتظنين انك ستتزوجينه ؟

ـ بل أعلم انى سأتزوجه !

ـ أتتوهمين ان والدك سيوافق ؟

ـ ولماذا لا يوافق ؟

ـ اتعقتدين حقا انه سيوافق ؟

ـ انا . . . لا ادرى . . .

ـ فى استطاعتك ان تعرفى الجواب اذا سألته صراحة

ـ كان فى نيتى أن أسأله رأيه . وكان ذلك فى نية فيليب أيضا . ولكننا فضلنا ان ننتظر الى أن . . . الى أن . . .

ـ الى ان يتأكد من انه سوف لا يطرد من البيت قبل الفراغ من انشاء آلته الجديدة . . . نعم هذا شيء مفهوم . فالآلة الجديدة لها الاعتبار الاول عنده ، لا انت . . . ولكنى على كل حال قد حذرتك ، وهذا كل ما أستطيع أن أصنعه · والان يحسن أن تبحثى عن مينشن وتطلبى اليه ان يأتى لدفع مقعدى

وكان البيت خاليا لأن والدها كان قد ذهب الى شلتنهام لقضاء سحابة النهار هناك بسبب بعض أعماله . وقد تولى بنفسه قيادة العربة الصغيرة كما يحلو له دائما ان يصنع فى الايام الساطعة الشمس وفيليب كان تحت العريشة . . . فشعرت فجأة بتعاسة شديدة . واستولى عليها احساس بأن السعادة الرائعة الصافية التى تمتعت بها فى الماضى القريب لا يمكن ان تدوم ، وليس مقدرا لها أن تدوم . وخيل اليها أن اشعة الشمس نفسها قد غشيتها كآبة معتمة ، فاتجهت الى نافذة حجرة الاستقبال واطلت على الحديقة . وعندئذ تبينت أن هذه العتمة ليست وهما . لأن سحابة من ضباب خفيف لبنى اللون كانت قد غشيت صفحة السماء كلها . وسكن الهواء وازدادت الرطوبة والحرارة ، مما ينذر بهبوب عاصفة من عواصف الصيف

وغادرت البيت الى الحديقة واتجهت نحو العريشة ، فرأته حيث

تركته منصرفا الى العمل . وهز لها رأسه وابتسم ، ولكنه ما كان يبتعد ولو لدقيقة واحدة عن ذلك الهيكل الغريب الشكل من التروس والاسطوانات . وقفزت الى ذهنها في التو واللحظة كلمات أمها اللاذعة

« انها الآلة الجديدة . هي وحدها لها المقام الاول من اهتمامه . لا انت ، فهل لهذه الكلمة نصيب من الحقيقة ؟ »

واحست انها لن تصمد للصدمة لو أن لهذه الكلمة ظلا من الحقيقة وطغى عليها طوفان من الجزع جعلها تصرخ هاتفة باسمه ثم تنفجر ناشجة بالبكاء . وعندئذ كف عن العمل وقال :

ــ ماذا جرى يا مارجريت بحق السماء ؟

قبل أن يتسنى لها أن تجيب استطرد يقول :

ــ لا يحق لك أن تبكى . لانك فى الواقع اقبلت فى لحظة نجاحى . بعد ساعتين اثنتين سيكون كل شيء على اتم أهبة كي يراه والدك . أنه سيعود الليلة . أليس كذلك ؟

فأجابته ببلاهة :

ــ بلى سيعود الليلة .. وأمي قد اكتشفت أمرنا يا فيليب

ــ يا الهي . أتعنين هذا حقا ؟ وهل قامت بسبب ذلك مشادة ؟

ــ كلا . كل ما هناك أنها حذرتني منك . حذرتنى من الثقة بك ، ولكنى اثق بك فعلا . يجب أن أثق بك . اليس كذلك ؟

ــ طبعا . طبعا . ولكن أمك ... تعترض طبعا ؟

ــ نعم . فهى تكرهك . ولعلهـــا تكرهنى أنا ايضا ... فلا اظنها متعلقة بأحد حقا فى الدنيا كلها اللهم الا بومى ... ولكنى لا ابالى ... لا ابالى ما يمكن أن يحدث ما دمنا ...

وقدمت شفتيها الى شفتيه وتعلقت بعنقه بحرارة ، واسلمت نفسها لاحضانه . فأشعلت جذوتها جذوته ، فأخذ يقبلهـا الى أن شهقت وقد افرخ روعها وقالت له بصوت مضعضع من الانفعال :

ــ فيليب . فيليب . انا لا اريد ان أضيع وقتك الذى يجب أن تصرفه فى اتمام عملك . أريدك أن تغدو رجلا عظيما ... اريدك أن تكون طموحا ... ولست أبالى كم من الزمن تقضيه بعيدا عنى فى صنع آلاتك ...

فحملق فى وجهها متعجبا من قولها ، ولكنها استطردت :

سنكون سعيدين جدا ٠٠ ستكون أنت سعيدا بآلاتك وانا سعيدة بأطفالى ٠ أريد حفنة كاملة من الاطفال ٠٠٠ أنا أعلم أننى لا ينبغى ان اقول شيئا كهذا . ولكن لا حيلة لى فى ذلك . لا استطيع ان أمنع نفسى من مصارحتك بما فى نفسى ... ولكنى لا ينبغى ان اضيع وقتك ... وعندما يعود أبى الى البيت الليلة يا فيليب ، هل تأذن لى أن أخبره بأمرنا ؟

ــ الليلة ؟

ــ نعم أود أن أفاتحه الليلة . فأمى لم تخبره بما تعرفه بعد . ولكنها قد تخبره . وانا لا احب أن يصل النبأ من أحد قبل أن نفاتحه نحن

ــ ولكنى يامارجريت أفضل أن ننتظر حتى الغد . فالآلة كما ترين قد نجحت نجاحا عظيما ٠ وأنا واثق أنه بعد ان يراها سيكون أكثر استعدادا لسماع ما نريد أن نقوله له

ــ انى على كل حال أفضل أن أخبره الليلة . ارجوك أن تدعنى اخبره الليلة

ــ ارجو الا تفعلى ذلك . فهو خطأ كبير !

ــ هل تعدنى بأن تدعنى اخبره غدا ؟

ــ سنخبره كلانا غدا أن احببت ، بمجرد مشاهدته للآلة :
الآلة ... الآلة ... الآلة

ــ وهو كذلك اذن . والان سأتركك لتعمل فى هدوء

ومرت الساعتان دون أن يفرغ من عمله ٠ وفى موعد الغداء لم يظهر له أثر . وجلست تنتظره وقتا طويلا . ولما يئست من حضوره أسرعت تعدو نحو العريشة كى تأتى به فقرات على وجهه أن شيئا ما ليس على ما يرام

وقال لها أن عقبة صغيرة قد برزت فى الطريق فجأة . واكد لها هوان شأنها . ترس صغير كسر فى آخر لحظة وسيقضى فترة بعد الظهر بطولها فى صنع ترس آخر . وانه لا يستطيع ازاء ذلك ان يقتطع وقتا للغداء

ولما ألحت عليه أن يتغدى قال انه لا يجد شهية للطعام . فان شاءت فلها أن تبعث اليه مع مينشن بشطيرة وزجاجة جعة

وعندما حان وقت تناول الشاى كانت صفحة السماء قد ازدادت تلبدا بالغيوم . وبدات همهمة الرعد تتواكب قادمة من المشرق . فتمنت على الله أن يكون والدها قد بدأ رحلة العودة من شلتنهام . لانها تعرف الحصان الذى يجر العربة الصغيره ، وتعلم أنه يهيج وتثور اعصابه حينما يشعر باقتراب الزوابع وقد يجمح

وانقبض صدرها وعاودها الشعور بالكوارث . وخيل اليها كأنها تمشى بمفردها فى بطن واد طويل ممتد . ثم رات فجأة الجبال على الجانبين تتهاوى ببطء لتنقض فوقها

وتناولت الشاى فى حجرة الاستقبال . واخبرها مينشن أن أمها اوت الى فراشها معلنة انها اسوأ حالا مما كانت . وعلق مينشن على ذلك بقوله :

ــ انه الغلال الجديد مرة اخرى يا آنسة مارجريت . ملاحظتى لا تخيب

وحل وقت العشاء . ولم يعد والدها ، ولم يفرغ فيليب من عمله واحست انها لا تتحمل طاقة الذهاب الى العريشة مرة أخرى فأرسلت مينشن الى فيليب تخبره بتأخير موعد العشاء الى حين عودة والدها وعاد اليها مينشن بالرد :

ــ مستر لوفل يقول انه سعيد جدا يا آنسة بهذه الفسحة من الوقت .. سعيد جدا بهذه الفسحة من الوقت .. مع آلته ..

ــ اما زال المطر ينهمر يا مينشن ؟

ــ قطرات كبيرة تسقط بين الحين والحين يا آنسة ... ولكن الغيث سرعان ما ينهمر بعد قليل بشدة ... بل أتوقع أن تكون العاصفة بالغة العنف يا آنسة

وفى هذه اللحظة ومض برق شديد فاخترق نوره الستائر . ثم أعقبته أنفجارات هائلة من الرعد القاصف . فأجفلت . لكن خوفها لم يكن على نفسها بل على أبيها . وانصرف ذهنها ايضا على الفور الى فيليب فالحصان سريع الهياج فى هذا الجو ...

وفجأة ، وسط هدير موجة أخرى من الرعد رات الباب ينفرج عن وجه مينشن الاحمر المتهدل . وقرات فى عينيه ان شيئا ما قد حدث . ومن الغريب انها لم تفكر فى تلك اللحظة الا فى البيت فخطر

لها أن جانبا من ابنيته الخارجية نزلت به صاعقة من البرق
وسمعت مينشن يناديها عبر الحجرة بهمس أجش :
ـ مس مارجريت .. مس ما رجريت . لقد عاد السـيد ...
ولكنه مريض جداً... وقدحملناه الىقاعة البلياردو ... الاتذهبين
اليه ؟

الفصــل الخامـس

الصدمة

كان والدها مستلقيا فوق أريكة وقد تصلبت ساقاه ، وتدلى ذراعاه الى الارض . وكان مينشن وأحد البستانيين العـاملين فى الحدائق المحيطة بالدار قد حملاه الى قاعة البلياردو ، لانهـا أقرب الحجرات الى الباب . . .

والظاهر انه دخل بعربته الى فناء البيت ، ثم سلم الحصـان والعربة الى احد عمال الاسطبلات ، ثم اسرع الخطو تحت وابل المطر الى مدخل المطبخ . وهناك رأى مينشن وأصدر اليه بضعة أوامر فى لهجة حادة . وكان ذلك أمرا غير مألوف اطلاقا وقد دهش له مينشن دهشة عظيمة . . .

وأسرع فرينشام بعد ذلك مخترقا الدهليز المؤدى الى الجـزء الرئيسى من بناء الدار . وهناك بالقرب من قاعة البلياردو سقط على الارض ، وقد اصابته نوبة من نوع ما . . .

كل هذا أخبرها به مينشن وهو يلهث . وقد وقفت شاخصة العينين الى ذلك الوجه الاحمر المتقلص الذى لم يعد الا ظلا مشـوها للوجه الذى طالما أحبته . . . ولم تستطع أن تصرخ . واستولى على ذهنها نوع من الصفاء البارد كصفاء الثلوج المتجمدة . فخطر فى ذهنها على الفور خاطر وصاحت :

— يجب أن يذهب أحد لاحضار الدكتور فرجيسـون فورا

وكان البستانى قد ذهب لاحضار الطبيب بالفعل . أخبرها مينشن بذلك ولكنه فى الوقت نفسـه قال ايضا أن الطبيب ربما لم يتمكن من الحضور فورا بسبب العاصفة . فقالت مارجريت :

— من المستحسن أن نتركه راقدا هنا الى ان يحضر الطبيب

ـ نعم يامس مارجريت . و .. وهل .. هل أخبر السيدة ؟

فأجابته بهدوء تام :

ـ كلا . ليس الان . لان ابلاغها النبأ لن نجنى منـه الا زيادة المصاعب فلننتظر الى أن يحضر الدكتور فرجيسون أولا . واعطنى قليلا من البراندى . . . ثم اذهب الى العريشة الملحقة بحظيرة الالبان واطلب من مستر لوفل أن يأتى الى هنا فورا !

وخيل اليها أن ساعات طويلة قد انقضت قبل حضور فيليب . وكانت العاصفة قد وصلت الى أشدها . فلما دخل رأت وجهه ملطخا بالزيت والمطر . وأشارت اليه اشارة خاطفة كى يلزم الصمت

وبدا عليه لاول وهلة أنه غير ميال لتجاوز عتبة البـاب . ولكنها استدعته وهمست قائلة :

ـ ابى مريض جدا فيما أظن يافيليب ، لقد أصيب بنوبة . وقد بعثنا فى طلب الطبيب ولكن العاصفة ربما عاقته عن الحضور فى الحال فهل تعرف شيئا فى أمور التطبيب ؟

فهز راسه وحملق فى شبه فزع الى الجسد الملقى على الاريكة ولم يقل شيئا ، فقالت مارجريت :

ـ لا بأس . ابق معى على كل حال الى أن يحضر فرجيسون

وأشارت له الى مقعد فى الناحية الاخـرى من الاريـكة . ورغم هدوئها الغريب شعرت بخفقة اشفاق عليه ، لان المفاجأة هزت أعصابه فليست له قوتها فى مثل هذه المواقف !

ولما استطاع اخيرا أن يقوى على الكلام قال متلعثما :

ـ كيف حدث هذا ؟

فأخبرته ثم جلسا معا فى صمت تام

وانقضت ساعة كاملة الى أن حضر فرجيسون أخيرا وكان قـد ركب اميالا طويلة تحت وابل المطر . فجعلت قطرات الماء تتساقط منه وهو واقف أمام الاريكة التى يرقد عليها المريض . وفرجيسون طبيب الاسرة العجوز منذ سنوات طويلة ، وهو الذى أشرف على ولادة مارجريت وبومى ولذا كان يهتم بهما اهتماما أبويا يكاد يصل الى رعاية كهنوتية . وقد بادر مينشن بقوله :

ـ جئنى حالا بكوب من الويسكى

ثم التفت الى مارجريت وقال لها :

ــ اين امك ؟

فأجابتها مارجريت بحدة واضحة :

ــ انها فى الطابق العلوى . فى حجرتها . وقد راينا . أو على الاقل رايت انا أنه لا جدوى من اخبارها فى هذه المرحلة على الاقل قبل حضورك

ــ آه . نعم . ، ولكن يجب أن تخبريها يا مارجريت . اخبريها فورا . اذهبى الان واخبريها ريثما القى نظرة على ابيك . وسيعاوننى مينشن وهذاالشاب (وأومأ برأسه الى جهة لوفل فى حمله الى فراشه بعد ذلك

وصعدت مارجريت الى الحجرة المضاءة بالشموع والتى تبدو دائما رغم الالفة الطويلة مكتظة بالستائر والابسطة والطنافس المعلقة وكانت والدتها مستيقظة. فقالت لهابغير مقدمات لانها لاتملك القدرة على التلطف فى البلاغ :

ــ ابى مريض يا أمى . وفرجيسون يريد منك أن تريه فورا . ولذا يجب أن تنهضى الان . وسأتولى مساعدتك فى ذلك

وكان هدوء أمها يضارع هدوءها . ولكنهما من نوعين مختلفين . فكان كل ما قالته الام :

ــ يستحسن أن يتولى مينشن دفع مقعدى كالعادة !

فأجابتها مارجريت بحدة واضحة :

ــ لايمكنك الآن الاستعانة بمينشن لانه مشغول بمعاونة فرجيسون وتلبية أوامره . واستطيع انا أن ادفع مقعدك

ــ وهل تعرفين كيف تحفظين توازن المقعد ذى العجلات عند النزول على السلم ؟

ــ لم أجرب من قبل . ولكنى ساحاول

وقبل ان تبدأ المحاولة فعلا حضر مينشن وعرض خدماته قائلا :

ــ لقد حملنا السيد الى الطابق العلوى حيث حجرته . ويود الدكتور ان يتحدث اليك فى الطابق الاسفل فى قاعة البلياردو يا مس مارجريت

فتركت أمها مع مينشن ونزلت الى قاعة البلياردو ، فوجدت

فرجيسون يغلق حقيبته الطبية ، ولكنه عندما رآها تدخل صب لها ولنفسه قدحين كبيرين من الويسكى وامرها قائلا :

ـ اشربى هذا جرعة واحدة ثم اشربى قدحا آخر بعده فانت الشخص الوحيد الذى يتعين عليه أن يتحمل كل هذا العبء فيما ارى

واستطرد بين جرعات كبيرة من الشراب يقول :

ـ لن اخفى عليك شيئا . فالحالة بكل صراحة خطيرة . فمنذ شهرين جاءنى ابوك واخبرنى أنه يشعر بآلام غريبة فى راسه . ففحصته فحصا دقيقا ثم قلت له « يا فريشام . لابد لك أن تقلع عن التدخين وعن تعاطى الاشربة الكحولية ، وان تعيش حياة هادئة كل الهدوء فى المستقبل »

ـ وماذا كان جوابه ؟

ـ اخذ يسب ويلعن فى أول الامر ورفض الاذعان ، ولكنى الححت عليه الى ان حملته على التعهد بالاقلاع نهائيا عن الطباق والخمر ، ولكنه لم ينجز وعده . وكنت اتوقع منه ذلك . لانه رحل الى لندن حيث قضى أسبوع اليوبيل الملكى . وهناك طبعا كان يدخن السيجار ويشرب الخمر كل ليلة ... ثم جاءت ضغثا على ابالة رحلته اليوم عائدا من شلتنهام فى عربة مفتوحة وسط أسوا عاصفة عرفناها منذ سنوات . وهذه هى النتيجة !

وكانت مارجريت تصغى لما يقوله الطبيب العجوز وهى واقفة وظهرها الى مكان المدفأة الخالى من النيران فى هذا الفصل من السنة، وهى ترشف الويسكى بطريقة آلية . واساريرها هادئة كل الهدوء. فلما فرغ الطبيب من كلامه سألته :

ـ اتعتقد أنه سيتحسن ؟

فقال لها :

ـ ارجوا هذا !

ولم تفتها الملاحظة ، فقالت :

ـ ترجو هذا ولكنك لا تعتقد انه سيحدث ؟

فترك سؤالها بغير جواب . واستمر فى اعداد حقيبته . قائلا

ـ لابد لى من العودة الى البيت كى أعد بعض العقاقير التى سيكون

بحاجة اليها . وساعود بعد ذلك مباشرة . فى نحو الساعة الحادية عشرة ، اذا كانت العاصفة لم تعرقل المسير . ثم انه ليس امامنا ما نصنعه فى الوقت الحاضر حتى الساعة الحادية عشرة . فلتخلد والدتك الى شيء من الراحة ان شاءت . أما أنت فيجب أن ترسلى فى استدعاء أخيك واختك حالا . وذلك على سبيل الاحتياط ... وبهذه المناسبة من هذا الشاب الذى كان هنا عند قدومى أول مرة ؟

ـ اسمه لوفل

ـ ضيف فيما اعتقد ؟

ـ نعم !

ولم يعقب على ذلك بشيء ....

وبعد انصرافه صعدت مارجريت الى الطابق العلوى ودخلت حجرة أبيها فوجدت امها جالسة فى مقعدها المتحرك بقرب فراشه . وكان لم يزل غائب عن صوابه وليس هناك شيء يمكن أن يصنع سوى الانتظار

وتوقف المطر عن الهطول ، وهبت على حجرة النوم رياح ندية دفعت بالستائر فانكشفت عن صفحة سماء زرقاء داكنة ولكنها حافلة بالنجوم. واشارت امها فى ضيق الى الستائر التى يعبث بها الهواء فقد كانت تكره النوافذ المفتوحة وتسمى كل نسمة رخاء ريحا صرصرا

ونهضت مارجريت الى النافذة فأغلقتها وهى تفكر فى روعة السير بين الاشجار فى ليلة صافية ندية الهواء كهذه الليلة ، سماؤها حافلة بالنجوم والهلال تحيط به هالة ،ومن الارض التى أثار كرامنها الغيث، يرتفع عبير الاعشاب مختلطا بالازهار التى تتناوح بها اغصان الشجر

ولم تكن الصورة خالية من فيليب . فلاشك انه سيجد فى تلك النزهة الليلة راحة من عناء التوتر العصبى الذى أصابه على أثر الحادث .. فلماذا لاتحمل البرقيات وتصحبه الى القرية ؟ ولابد من ايقاظ الموظفين كى يرسلوا البرقيات. . وهؤلاء الموظفون سيتولون اذاعة الخبر على جميع الناس فى المنطقة بمجرد طلوع النهار . وسيهز الناس رءوسهم ويقول القائل منهم :

ـ بالفرينشام المسكين ! .. أهكذا فجأة ؟ فى الاسبوع الماضى فقط

شاهدته يمر وهو يقود العربة بنفسه وتبدو عليه الصحة الكاملة !!

ونظرت الى أمها . فوجدتها تنظر اليها . فسألتها :

ــ اتشعرين بتعب يا أمى ؟

ــ اشتدت آلامى ... واظن هذا من اثر الصدمة . ماذا قال فرجيسون ؟

ــ لم يقل سوى انه لا حيلة لنا سوى الانتظار . وانه سيعود فى الساعة الحادية عشرة . وقال ايضا انه ينصحك بالايواء الى فراشك ان شئت ذلك

ــ اظن أن هذا يستحسن ... ولكنى سوف لا أخلع ثيابى ... قولى لمينشن أن يأتى ليدفع مقعدى

وذهبت تبحث عنه فوجدته محتقن الوجه ، لاهث الانفاس من تأثير المجهود والمفاجأة . وجاء فدفع المقعد وانصرف بالسيدة المريضة كما تعود أن يفعل منذ سنوات

وقالت مارجريت لامها وهى منصرفة :

ــ سأدعوك يا أماه اذا دعت الحالة لذلك !

وخلت لنفسها برهة . وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بثلاثين دقيقة . ولن يلبث فيليب وفرجيسون ان يعودا . وكان فيليب هو الذى عاد أولا فتركت له فسحة من الوقت لتناول العشاء ثم طلبت من مينش أن يستدعيه . لانها قدرت أنه سيشعر بالوحشة وهو بمفرده فى الطابق السفلى . ثم لعل الخروج فى الهواء الطلق برهة سيفيده ...

وطرق الباب برفق ثم فتحه ، فلاحظت مرة أخرى توتر اعصابه بصورة غريبة . ووقف عند عتبة الباب الى أن ذهبت اليه وقالت له :

ــ يا فيليب . افضل أن تبقى معى الى ان يعود فرجيسون . ولن يطول الانتظار ... فهل لديك مانع ؟

وجلسا على الجانبين المتقابلين للفراش واخذا يتحدثان همسا .. ونظرت هى الى أبيها وهو راقد فأدركت انها لم تفطن من قبل الى مبلغ ضخامته . وجعلها ذلك تفكر فى أمها القصيرة النحيلة . فلاشك أن الناس كانوا يضحكون دائما من منظر الاثنين معا . ولكن لابد ان

هذا كان منذ زمن بعيد . لانهما لم يخرجا الى المجتمعات معا منذ سنوات كثيرة ... ان راسه وهو على الوسادة يبدو اضخم بكثير من المعتاد . وعروق جبهته وعارضيه زرقاء شديدة الزرقة كانها توشك أن تنفجر

وخيل اليها ان الهـواء فى الحجرة غير كاف . وكان ابوها على عكس أمها يحب الهواء الطلق دائما . فقالت همسا :

ـ افتح النافذة يا فيليب . فان والدتى جعلتنا نغلقها عندما كانت هنا ، ولكنى أعتقد أننا يجب أن نبقيها مفتوحة

فنهض وفتح النافذة ثم جلس . ودقت الساعة الضخمة دقة الربع بعد الحادية عشرة . فلا شـك أن فرجيسون سوف يعود بسرعة ... ان السكون سائد تماما . وسوف يصل الى سمعهـا حتما صوت الحصان وهو قادم على الطريق ... يبدو لها أنه قد مرت ساعات وهى فى الانتظار . ومرت سنوات منذ الليلة الماضية ، حينما سارت هى وفيليب معا على شاطىء النهر ، وكانت الحيـاة تبتسم لهما . وكل شىء يبدو فى عينيها رائعا . وهمست فجأة :

ـ فيليب !

فرفع اليها عينين تنطقان بالفزع . وقالت :

ـ فيليب ... هل حقا تحبنى ؟

ـ احبك ؟ نعم بالطبع ... طبعا احبك !

فهزت راسها وابتسمت وتركت الصمت يخيم عليهما مرة اخرى اذا لم يحضر فرجيسون بعد قليل فلابد ان ترسل أحد البستانين للبحث عنه على الطريق ...

ولكن فجأة ، وبينما هى ترتب فى ذهنها ما تصنعه فى هذا الصدد ، شعرت بحركة خفيفة تصدر عن الفراش . وأدركت أن عينى أبيها رايلهما ذلك التحديق الزجاجى المتجـه الى السقف ، فهمـا الآن تصوبان نظرة ثاقبة الى فيليب . وهمست تقول له :

ـ انظر .. انظر ! انه يفيق !

ثم استطردت تقول بكل لطف :

ـ كل شىء على مايرام يا أبى ... نحن هنا ... مارجريت و... مستر لوفل ...

واكفهر وجه فيليب ، وجلس معقود اللسان ساكنا كالتمثـــال . وتعجبت لماذا لم يقل شيئا ملطفا لخاطر الاب . وعللت ذلك بأنه لم يزل مهتز الاعصاب من وقع الحادث

وبعد ذلك حدث صراع لم يكن أمامها هي وفيليب الا أن يشاهداه من غير أن تكون لهما حيلة فيه . لقد كان أبوها يكافح فى سـبيل النطق ، وأصابعه تتشبث بمفرش السرير فى جنون ، وكأنه يصارع عدوا خفيا أخذ بمجامع لسانه وحنجرته . ولم تسفر تلك المعركة المستيئسة الا عن كلمة واحدة مفهومة المقاطع . وهذه الكلمة هى « لوفل » !

وهمست مارجريت وهى تنحنى فوقه :

ــ ها هو ذا هنا يا أبى !

ولكن الصراع كان قد انتهى ، واستكان الرجـل للرقاد وقـد تلاحقت انفاسه التى يجد صعوبة شديدة فى استجماعها . فقالت :

ــ يا فيليب . انى اشعر انه من الواجب استدعاء امى . . . نعم انه لا يبدو أسوأ حالا مما كان . . . ولكن مع هذا اذهب وناد مينشن

واسرع الى الباب بيد أنها استوقفته قائلة :

ــ كلا . كلا . . . لا تذهب الان

ثم انحنت مرة اخرى فوق الفراش . وقفزت بعدئذ واقفة حتى اوشكت ان تسقط المقعد على الارض ، وصاحت بصوت أجش :

ــ اعتقد أن شيئا قد حدث . . . لا أظنه يتنفس . . . كان يبدو عليه انه يرتجف . . . فيليب . . . أتستطيع ان تعرف . . . ؟

ووقف الاثنان أمام الفراش وتطلعا الى الرجل الراقد هنـاك . وكان يبدو هادئا . وخيل الى مارجريت انه عوفى مما كان يشعر به . وأن الساعات التى مرت بها أخيرا لم تكن سوى حلم مزعج . وانه ينام نوما عاديا

ولكن فيليب هز رأسه وقال :

ــ اعتقد أنه . . . هل أبقى هنا الى أن تستدعى أنت أحدا ؟

فقالت بحزم

ــ كلا . سأبقى أنا واذهب انت وائتنى بمينشن

وانهار تجلدها عندما صارت وحدها فى الحجرة . ولكنها استردت هدوءها كاملا عندما عاد فيليب ومعه مينشن

الفصل السادس

الحقيقة

رحل فيليب الى برمنجهام فى صباح اليوم التالى . تولى توصيله فى العربة الصغيرة أحد السياس الى محطة السكة الحديد . واثناء الطريق التقت العربة بعربة كبيرة مفتوحة كانت تقل ليلى قادمة الى الدار . فحدق كل منهما فى الآخر تحديقا شديدا ...

لقد سافر لمدة أسبوع الى أن تنتهى مراسم الجنازة . وقد رات مارجريت أنه على صواب فى هذا القرار . فذلك انسب تصرف فى هذا الظرف

واقيمت الجنازة فى كنيسة كولد مارستون التى تكاد تقع فى ظل تل ستاو . ولم يحضر الجنازة أحد سوى أفراد الاسرة وخدمها . ولعل مراسم الجنازة كانت لا تخلو فى جملتها من سخرية خفيفة . لان كيم فرينشام كان فى شبابه من أشد المتحمسين لداروين وهاكسلى عالمى الاحياء المشهورين بعداء الكنيسة لنظرياتهما فى النشوء والتطور وكان « غنوطسيا » أى أنه يؤمن بوجود الله عموما من غير طريق كتب الوحى والانبياء . وبطبيعة الحال كان شديد الاغفال للأشكال والمراسم الكهنوتية والكنسية

وحضر من لندن لشهود الجنازة المحامى باسلو ، الذى رأى من الحكمة فتح الوصية بعد الانتهاء من طقوس الدفن مباشرة

ونصت الوصية على هبة ضخمة للارملة التى آلت اليها ايضا الدار والاراضى المحيطة بها . ونصت كذلك على هبات صغيرة لجهات البر وللخدم وما الى ذلك . أما الباقى كله فمقسم بين الاولاد الثلاثة . ولما كان بوميروى بالغا سن الرشد فله أن يتسلم نصيبه فى التركة فورا . أما مارجريت فعليها أن تنتظر مدة وجيزة الى أن

تبلغ رشدها

ولا شك أن فرينشام حين كتب هذه الوصية كان يعتقد أن أمواله المنقولة من أسهم وسندات وما الى ذلك طائلة القيمة . ولكنه في السنوات الاخيرة منى بخسائر كبيرة نتيجة مغامرات جريئة فى عالم المال . فترك وراءه ديونا كبيرة تستغرق تصفيتها وقتا طويلا فكأن الارملة وحدها هى التى ورثت الجانب الاكبر من الثروة

وانتحى المحامى بمارجريت جانبا وافهمها ان الموقف يحتاج منها لشجاعة كبيرة . وربما كان من المستحسن بيع هاى ستاو لمجابهة الديون

ــ هــذا على الاقل اقتراح يجب مناقشته مع مستر بوميروى عندما يعود الى الوطن قريبا

واصبح الجو ــ بعد العاصفة ــ فى غاية الاعتدال فبدت الحدائق المحيطة بالدار فى اوج فتنتها . وتمنت مارجريت من اعماق قلبها الا يحتاج الامر الى بيع هاى ستاو . ولكنها فى الوقت نفسه كانت تشعر بأنه لو اقتضى الامر بيع هاى ستاو فسيكون افتقادها وحنينها الى الحدائق المترامية المحيطة بالدار اكثر من حنينها وافتقادها للبناء نفسه . وكانت تعلم أن هــذا هو احساس بومى أيضا . وتساءلت فيما بينها وبين نفسها كيف عسى بومى أن يبدو لعينيها بعد غيبته فى امريكا وقد طالت ثلاث سنوات . كم سيسعدها أن يكون بومى معها فى البيت كسابق العهد . ولاسيما اذا شعر بالمودة نحو فيليب ! ولكنه طبعا سيحب فيليب . لانه من العسير على أى انسان الا يحب فيليب

ومع ذلك كانت كراهة أمها له لم تتزعزع بمرور الوقت . ولم يعد اسمه يذكر فيما بينهما كثيرا . ولكن فى أصيل الليلة التى كانت تتوقع وصوله فيها من برمنجهام قالت لها امها فجأة :

ــ قال لى دارنت أن لوفل سيعود الليلة الى هنا

ــ هذا صحيح

ــ اظنك مسرورة لهذا ؟

ــ نعم

ـ وما سبب عودته ؟

ـ لقد ترك هنا آلته وأدواته ورسومه

ـ آه ! الم يكن فى الامكان ارسال هذا كله اليه ؟

ـ بلى . ولكن هناك موضوعات يجب ان نتحدث فيها نحن الاثنان

ـ انه طبعا يعرف اننا لا نستطيع الآن ان نستمر فى تنفيذ اى اتفاق تم بينه وبين والدك ؟

ـ اعتقد انه يدرك هذا

ـ انني مازلت عاجزة عن تصور سبب وجيه لحضوره اطلاقا

ـ قلت لك أن بيننا أمورا يجب التحدث فيها

ـ امور تتعلق بآلته الجديدة . هه ؟

ـ نعم ... وأمور اخرى أيضا !

ـ وعلى الاخص الامور الاخرى . اليس كذلك ؟

فقالت مارجريت بصراحتها المعهودة :

ـ بلى !

ـ وهل مازلت بعد كل هـذا الذى حدث مصممة على الزواج منه ؟

ـ لست أرى أى وجه كى يحول هذا الذى حدث بينى وبين هذا الزواج !

ورات عنـدئذ أمهـا تبتسم نصف ابتسامة وتتحسس صفحة وجهها بمنديل مبلل بماء الكولونيا . وكانت جميع نوافـذ الحجرة مغلقة اغلاقا محكما . والهواء الساكن الراكد مثقل بروائح العطور المختلفة ، التى تختلط فيها رائحة الكافور برائحة الياسمين وغيره من الازهار العاطرة . وكانت مارجريت تكره هذا الجو الثقيل على الصدر . وكذلك كيم كان يكرهه جدا

وتمنت مارجريت ان تدخل ليلى عليهما لأن ذلك من شأنه ان يضع حدا للمناقشة . فهى لا تشعر بالرغبة فى مناقشة أمر فيليب مع أى انسان . ولاسيما مع أمها . ولكن أمهـا استأنفت فجـأة اسئلتها من زاوية أخرى :

ـ هل اخبرك الدكتور فرجيسون يامارجريت بسبب وفاة أبيك ؟

ـ قال لى انه شلل فى المخ

ـ وما تظنين أنه كان السبب فى ذلك الشلل ؟

ـ قال الدكتور فرجيسون أن السبب ربما كان قلقه الشديد ومحاولته اليائسة للوصول الى البيت بسرعة اثناء العاصفة

ـ انه القلق أو الانزعاج على كل حال . هل اقر لك بهذا ؟

ـ نعم

ـ اذن استطيع ان اخبرك عن انزعاج أعظم بكثير مما تتصورين . وقد حدث له هذا الانزعاج قبل وصوله الى البيت مباشرة

ومالت الام الى الامام فى مقعدها ولبثت صامتة لحظة ولكن مارجريت لم تتكلم . وعندئذ قالت الام :

ـ لقد رأى صديقك لوفل

لوفل ؟ ... وكادت عيناها العسليتان تقفزان من محجريهما وهى تسأل :

ـ رآه ؟ ماذا ... ماذا تعنين بذلك ؟

ـ أعنى بذلك انهما تبادلا الحديث . وكنت جالسة أمام نافذتى فاستطعت أن اسمع حديثهما رغم ضجة المطر والرعد . فلى اذنان حادتان كما تعلمين ، ولكن كلامهما كان بصوت عال جـــدا ... فهل لم يخبرك لوفل بذلك الحديث ولم يذكر لك شيئا عنه ؟

وسكتت مارجريت فلم تجب . فقالت الام :

ـ لقد قدرت انه لن يخبرك بأمر هذا الحديث . لانى لم اتوقع منه أن يكون صريحا معك ، كصراحتك معه !

ـ دعى هذه المسألة الآن يا أمى . ولكن خبرينى ماذا حدث بينهما ؟

ـ سأخبرك بكل ما اعرفه وهو ليس بالشيء الكثير : كان والدك عائدا بسرعة الى البيت عن طريق باب المطبخ ، وكان لوفل معــه ، فلابد انهما تقابلا قبل هذه اللحظة . ولم اسمع بوضوح ماذا كانا يقولان . ولكن كان من الجلى أنهما يتشاحنان . وكان من الجلى أيضا أن موضوع المشاحنة هو أنت

ـ أنا ؟

ـ هل هذا يدهشك حقا ؟

ـ خبرينى .. خبرينى أى نوع من التشاحن كان هذا ؟ هل كانا يتجادلان مجرد مجادلة ؟

ـ لا أستطيع ان اجزم بهذا . وعلى كل حال ينبغي ان اكون منصفة لصديقك . اليس كذلك ؟ ولكن اذا كنت تريدين أن تعرفي القصة كلها فلماذا لا تسألين لوفل نفسه عما حدث فعلا ؟

ـ سأسأله . سأسأله . وانا اعلم انه سيفسر لي كل شيء

ـ بلا شك . ولكن بعد ذلك . عندما يكون قد فسر لك كل شيء فلك ايضا أن تسألي نفسك ان كنت تصدقين هذا التفسير

وقبضت على قبعتها ومعطفها وخرجت تجري من البيت الى الحدائق لانها أحست باحتياجها الشديد للهرب الى الهواء الطلق. ونادتها ليلي من احدى النوافذ وسالتها اين هي ذاهبة . فأجابتها مارجريت :

ـ لا ادري !

فأجابتها ليلي بشيطنة :

ـ اظنك ذاهبة لمقابلة صاحبك مستر لوفل على المحطة ؟

فراقت لها هذه الفكرة وقررت ان تذهب لمقابلته على المحطة . ثم تسأله عن ذلك الموضوع بغير لف ولا دوران

وانتظرته على رصيف المحطة . وكان من المؤلم لها جدا أن يذكرها منظره بأبيها . فهو يشبهه جدا في البنية والسحنة . وفيه تفتحه للحياة . ولم يحمل معه الا حقيبة صغيرة . فلما اقترحت عليه العودة الى البيت سيرا على الاقدام بطريق مختصرة تخترق الحقول وافق على الفور

وتحدث في بداية الامر في موضوعات شتى . موضوعات عامة مثل برمنجهام وحالة الجو وآخر الانباء الواردة من جنوب افريقيا . وكأنها كانت تختبره كغريب قبل أن ترفع الحجب بينهما . واحست أنه يتهيبها قليلا . أما هي فكانت أكثر من متهيبة مما ستقدم عليه. وكادت نفسها تراودها الا تفاتحه . وان تترك الامور كما هي يكتنفها الغموض . ولكن ما ان اختفت عن انظارهما اضواء القرية واوغلا بين الحقول حتى أسرع يضمها اليه ويقبلها . فكان ذلك هو الحافز القوي لها على المصارحة . فقالت له وهي تدفعه عنها :

ـ يافيليب . اني أريد أن القي عليك بضعة اسئلة . فهل تجيبني عنها ؟

فقال لها على الفور :

ــ طبعا . سلى أى سؤال شئت ولكن قبلينى أولا !

فأحست أن مرحه مصطنع وقالت له :

ــ كلا كلا . . . أريد يافيليب أن تخبرنى ماذا حدث بينك وبين أبى ليلة وفاته ؟

وشعرت به فى الظلام وقد اخذ بالسؤال وأبتعد عنها . فعلمت بغريزتها أن أمها صدقتها القول . ولكنها مع ذلك لبثت تنتظر رده على سؤالها بهدوء . واخيرا صاح متعجبا :

ــ يا الهى ! ماذا تعنين بهذا السؤال ؟

ــ لا اعنى شيئا . كل ما هنـاك انى أطلب منك أن تذكـر لى الحقيقة كاملة . لقد التقيت انت وابى ليلة وفاته . اليس كذلك ؟ وحدث بينكما جدل أو نقاش بشأنى . وأريد منك أن تخبرنى عن هذا النقاش

فتبدلت حالته فجاة . وفارقه المرح وظهر عليه اليأس . وقبض على ذراعها وصاح قائلا :

ــ مارجريت ! لم يكن الذنب ذنبى يا مارجريت . . . اقسم لك على ذلك . . . لم أكن أعلم انه عليل بهذه الصورة !

فنظرت فى الظلام الى ملامح وجهه المعتمة وقالت :

ــ أنا لا اتهمك بشىء . . .

والحقيقة ان صوته كانت فيه نغمة لم تستطع احتمالها . ولهذا حرصت على ان تكون هادئة كل الهدوء :

ــ . . كل ما أريده ان تخبرنى فى بساطة وهدوء بكل ماحدث !

ــ اقسم لك أمام الله يا مارجريت أنه لم تكن لدى فكرة . . .

ــ اعلم هذا . ولكن خبرنى بما حدث

ــ انى . . . اشعر بخزى شديد . . . جدا

ــ تكلم !

وتكلم بلهجة عرجاء متعثرة فقال لها ان اباها دخل عليه العريشة وسط العاصفة وسأله بلا مقدمات : « ماذا بحق الشيطان تقصـد من تمسحك بابنتى ؟ » وكان واضحا ان هناك من حذره بشأننا . فقلت له حقيقة علاقتنا بحذافيرها . فثار ثائره وسبنى ونعتنى

فيما نعتنى به بأنى انتهازى . . . فأخرجنى ذلك عن طورى . وكانت أعصابى مرهقة جدا بعد أن ظللت ست ساعات أحاول عبثا اصلاح كسر فى الآلة . فضلا عن جو العاصفة المشحون بالكهرباء . آه لو كنت اعلم أنه مريض !

ــ اكمل . أرجوك أن تكمل

وظل يصرخ بأعلى صوته أننى وغد . وأننى أسأت استغلال كرم ضيافته وما الى ذلك . وعندئذ . . . عنـدئذ قلت له اذهب الى الشيطان . اعترف بهذا . والحقيقة اننى لم اكن أعلم . . .

ــ نعم نعم . اعرف ذلك . ولكن أذكر لى بقية ما حدث

ــ بعد ذلك . . . ضربنى . . بأقصى قوته . . . و . . . فضربته !

ــ انت ضربته ؟

ــ وكيف كان يمكننى أن أعلم يا مارجريت ؟ انه كان يبدو ضخما قويا . حتى أننى كنت أعتقد فى أعماق نفسى أنه اذا حدث بيننـا شجار سيغلبنى بقوته الفائقة . . . ومع ذلك بمجرد أن لكمته . ولم تكن اللكمة قوية جدا أدركت ان به شيئا . فأخذ يترنح خارجا تحت المطر ، واتجه الى البيت . فتبعته لانى قدرت انه ربما أغمى عليـه ، واحتاج لمساعدة . وظل طول الطـريق الى المطبخ يصيح ويسبنى . وربما أكون أجبته بمثل صياحه وسبابه . . . لا أدرى ولا أذكر . لان حالتى كانت فى منتهى الفظاعة . ولما دخـل البيت جريت عائدا الى العريشة . هذه هى الحقيقة . الحقيقة الكاملة بحذافيرها . ولا يمكنك ان تتصورى شعورى بعد ذلك عندما بعثت فى طلبى ، ووجدته راقدا هناك فى قاعة البلياردو

واحست أنه يوشك أن ينهار . فسكتت ولم تتكلم فاستطرد بحرارة :

ــ يا مارجريت . أتكرهيننى لهذا السبب ؟ وكيف كنت أستطيع أن أعلم أنه مريض ؟ ان والدتك تكرهنى كما أعلم . وفرجيسون يرتاب فى أمرى . ولكن لابد أنك أنت تثقين بى . يجب . يجب !

فقالت وهى تشيح بوجهها عنه :

ــ فلنحاول أن نعالج الامر بهدوء يا فيليب . وأنت طبعا لم تكن تدرى أن الدى مريض . هذا شىء مفروغ منـه . وفرجيســون

اخبرني فعلا ان وفاته كانت متوقعة بصورة فجائية في أي وقت ، وأن أي سبب كان كافيا لذلك

ـ أي سبب ... ولكنك تعتقدين انني كنت السبب ؟

ـ على هذا الاساس أعتقد انك كنت السبب . ألست تدرى ذلك؟

سألته السؤال بهدوء تام ، ولكن الموقف كان شديد الوطأة عليه ، فقال وهو يلهث :

ـ يا الهي ! هل يمكن أن تصفحي عني ؟

وأجابته بهدوئها الراسخ :

ـ لقد صفحت عنك بالفعل يافيليب . غفرت لك هذا الذي صنعته به

ـ اذن هناك شيء آخر ؟

ـ نعم . أنا لا أدرى لماذا لم تخبرني بكل هذا بمجرد حدوثه !

وساد الصمت فترة . ثم قال :

ـ كان ينبغي أن أخبرك . اعلم هذا . ولكني خشيت ان أسبب لك الما

ـ ولكنه ألم أقل بكثير من المى لانك لم تصارحني

ـ ظننت انك لن تغفري لي لو علمت

ـ كان ينبغي أن تجازف !

ـ هذا صحيح

ـ لقد أخطأت يا فيليب اذ لم تخبرني ...

ولم يعد صوتها هادئا . بل كان يختلج بالانفعال :

ـ ... كان من الخطأ ان تجلس الى جوار فراشه في ساعته الاخيرة ، بعد هذا الذي حدث بينكما . وانت تذكر كيف نطق باسمك وهو يلفظ نفسه الاخير ؟ كان لا يزال غاضبا عليك عندئذ .. وكان ينبغي ألا تكون هناك

ـ ظننتك تريدينني أن ابقى معك

ـ وهل كنت تظنني اريدك أن تبقى معه لو أنني كنت اعلم الحقيقة؟

ـ كان ذلك جبنا مني . اعترف بهذا يامارجريت . لم تواتني الشجاعة على اخبارك بعد الذي حدث !

ـ أو لم تواتك الثقة بي ؟

ـــ كلا كلا ليس هذا هو السبب

فسكتت واستمرت فى السير غير مكترثة بانكاره . فقال بعـــــد قليـــــل :

ـــ وكيف اكتشفت المسألة يامارجريت ؟

ـــ سمعت أمى جانبامن المشاجرة . لانها كانت عند نافذة الحجرة الغربية

ـــ أستطيع أن اتخيل ما قالتة لك عنى

فشعرت على الفور ولاول مرة فى حياتها فيما تذكر بشىء يجذبها الى الدفاع عن أمها فقالت :

ـــ لقد كانت منصفة جدا فى الواقع . ثم انها لو لم تسمع جانبا مما حدث عفوا لما عرفت أنا الحقيقة اطلاقا . اليس كذلك ؟

فأجابها بشراسة :

ـــ أنك مازلت توبخينني يا مارجريت ؛ انك تكرهينني بسبب ما فرط منى ! انى اسمع هذا فى نبرة صوتك وفى كلماتك . ولا أظن انك سامحتني ولا تستطيعين أن تسامحينى

وازعجها قوله . لانه كل من بقى لها فى الحياة وحبها له هو السند الوحيد الباقى لها . فتعلقت به فجاة وضمته بشدة اليها ، وراحت تقبله بحرارة . كانت تريده . وتحن اليه . ولكن جوع جســــدها طغى عليه جوع آخر هو جوع روحها . فقالت وهى تلهث مرتجفة بين ذراعيه :

ـــ تزوجنى بربك . تزوجنى بسرعة يا فيليب . وبعد ذلك نستطيع ان نلقى بهذا كله وراء ظهورنا . وسأصفح وانسى هذا كله عندما يضمنا بيت واحد ، وتصبح انت زوجى العزيز ! تزوجنى بسرعة يا فيليب . فانا لا اطيق ان اعيش فى هــذا البيت العتيق الان . واريدك اكثر مما اردتك فى اى يوم مضى يافيليب ...

فعانقها بحنان وهيــام . وقد الهبت عواطفــه حلاوة مفاتنهــا الجسدية ، ورائحة شعرها العطرة ، وبضاضة شفتيها الحارتين :

ـــ نعم نعم ، سريعا ، بأسرع ما نستطيع . ولكن لا مال عندى كما تعلمين

ـــ انا لا ابالى بهذا . سأعمل . سيعمل كلانا بكل جد . وسأعيش معك فى احقر كوخ فى برمنجهام واحس اننى فى الجنة !

ـ لن يطول بك هذا الاحساس . وسرعان ماتكتشفين ان الافلاس ابعد ما يكون عن حياة النعيم التى تتخيلينها

ـ اذن دعنى أكتشف ذلك بنفسى . ولابد أنى ساكتشفه على كل حال لانه لن يكون لى مال حتى ولو بقيت فى الدار ولم أتزوج

فبدا عليه الاهتمام الشديد وهو يقول متعجبا :

ـ اوه ؟

فسردت على مسامعه دقائق الموقف بعد فتح الوصية ثم قالت :

ـ فنحن اذن على قدم المساواة الآن . وينبغى ان نواجه الواقع . وانا واثقة انك ستغدو شهيرا فى يوم من الايام . واثقة بهذا ثقتك انت به . واريد ان أعينك واعمل لك . فخذنى . خذنى معك حيث شئت . وفورا ...

ـ انت رائعة !

وكان يعنى بهذا دفء شفتيها وضوء القمر الذى ينعكس على الدموع المترقرقة فى عينيها وهما يستأنفان المسير

وكانت امها جالسة تقرأ فى حجرتها عندما صعدت اليها لتحييها تحية المساء . وكان كل ما قالته لها أمها :

ـ اذن فأنت قد أتيت به ثانية يا مارجريت ؟

ـ نعم

ـ هل سيقيم طويلا ؟

ـ بضعة أيام . ريثما يحزم أمتعته

ـ وهل اخبرك بالحقيقة ؟

ـ نعم

ـ وهل طابق كلامه كلامى ؟

ـ نعم

ـ أوه ؟ هل اعترف بكل شىء اذن ؟ وماذا فعلت أنت ؟

ـ صفحت عنه !

الفصل السابع

اكتشاف

لم تر مارجريت فيليب كثيرا جدا كما هو منتظر في الايام القليلة التالية • لانه كان يقضي الوقت في العريشة مشغولا بحزم آلتـــه وأدواته • وهي أيضا كان لديها عمل كثير جدا يشغل معظم وقتها • وكان لغز شخصية والدها الحقيقية لم يزل مستوليا عليها • فأغراها ذلك بالاقدام على فحص طويل دقيق بين أكداس كثيرة من الخطابات والاوراق التي خلفها وراءه

كانت مارجريت تخصص فترات الصباح لهذا البحث • ولم تخبر والدتها بشيء عنه لان الفكرة في ذلك كانت فكرتها وحدهـــا • ولم يسفر البحث في أول صباح عن شيء سوى الكشف عن وسائل أبيها المضطربة المتسمة بالفوضى في ادارة أعماله . وفي الصباح الثاني وقعت يدها على آثار عهد أقدم من ذلك فتكشفت لهـــا دلائل اسرافه واندفاعاته المتنوعة ...

أما اليوم الثالث فاكتشفت فيه خطابات كثيرة من نســاء ... وكان عدد هذه الخطابات عشرات بل مئات مكدسة على غير نظام في قاع درج من أدراج مكتب قديم له • ولم تقدم على قراءة هذه الخطابات في مبدأ الامر لان مطالعة هذه الخطابات جعلتها تجفل من التطفل على شئون تبدو عليها الصبغة الشخصية والخصوصية بصورة واضحة ثم قرأت خطابا أو خطابين منها ولم تستطع أن تمضي في القراءة أكثر من هذا •• لان السطور بدت لها غير معقولة وتفوق مضموناتها أشد تخيلاتها اسرافا • ومع هذا لم يكن هناك مجال للخطأ في التأويل فتواريخ الخطابات وأختام البريد على مظروفاتها كانت دليلا دامغا على صدقها وواقعيتها

ولم تدرك المغزى الذى تنطوى عليه تلك الخطابات فى البداية . فلما ادركته تألمت لذلك ألما فظيعا . ألما شديداً كألمها عندما اكتشفت سر فيليب . بيد أن ألمها فى هذه المرة أعمق وأكثر حدة حتى لقد شعرت بغثيان ، فخرجت الى الحديقة وهامت على وجهها بين خمائلها نصف ساعة وهى تحاول أن ترتب ذهنها ، وتستوعب أطراف المسألة حتى لقد كادت فى النهاية تشك فى وجودها نفسه لفرط نفورها من اليقين بواقع هذه الامور

وخرجت بالنتيجة التالية : أنه لم يكن هناك وقت تعيه ذاكرتها منذ ولادتها أو قبل ذلك الى زمن قريب جدا ، لم يكن فيه لوالدها عشيقة . وظل الحال على هذه الوتيرة تلك السنوات . بل لعل الحال كان كذلك منذ ولادة أخيها الاكبر بومى . فكانت هناك دائما امرأة فى مكان ما على صلة بأبيها

وكثير من هذه الخطابات خطابات حب وغزل . وكثير منها أيضا لم يكن سوى مذكرات قصيرة لتحديد مواعيد الالتقاء أو أمكنته وما الى ذلك . ولكن جميع الخطابات تقريبا كانت تحوى من التفاصيل مالا يدع مجالا للشك فى نوع هذه العلاقات الغرامية ..

واحدى هؤلاء النساء كانت تعيش فى بروكسل وتكتب رسائلها بلغة فرنسية عامية مبتذلة . وامرأة غيرها كانت لندنية لم تجد مارجريت بدا من الاعتراف بما فى رسائلها من دلائل على ذكائها وقوة شخصيتها . وكان هناك شىء مشترك بين جميع الرسائل التى كتبتها جميع النساء ، وهذا الشىء هو هيامهن بأبيها هياما يبدو قويا صادقا لاغش فيه

وانتضى الغداء وهى فى حالة شبيهة بالحلم . وكان فيليب وليلى يتحدثان معظم الوقت على المائدة . وبدا واضحا أن ليلى مشغولة به وتحاول محاولة اليائس أن تتظاهر بالاهتمام بأشد مشكلات الهندسة الميكانيكية تعقيدا وغموضا .. وبعد انتهاء الغداء عادت مارجريت الى المكتب . فقد كان عليها ان تصل الى قرار فى هذه الخطابات ، وماذا تصنع بها

هل تجمع شتات هذه الخطابات فى عناية وتخفيها فى مكان ما الى آن تعمل الصدفة عملها فى يوم من الايام فتعثر بها يد شخص آخر

بعد سنوات طويلة ؟

كان أكثر ميلها الى القضاء على تلك الخطابات قضاء تاما • فهى قد استخلصت منها الحقيقة عن أبيها ، وليس من المحتمل ان تنساها ما عاشت • نعم يجب أن تعدمها اعداما !

وأخذت تجمع الخطابات بالعشرات فى كل مرة وتلقى بهـــا الى نيران المدفأة • واستغرق احراقها وقتا طويلا • وكانت الحرارة فى ذلك اليوم الحار من شهر يونية خانقة . وعندئذ ، وهى مستغرقة فى عملية الاحراق انفتح باب المكتب ودخلت أمها يدفع مقعدهـــا المتحرك مينشن !

وكانت لحظة عصيبة ..

ووقفت مارجريت وظهرها الى المكتب المفتوح تحملق ببــلاهة عبر الحجرة نحو الباب • وابتسمت مسز فرينشام ابتسامة صـــغيرة غامضة وأومأ ت برأسها تصرف مينشن • فلما انصرف قالت :

ـ اذن فأنت تقومين باحراقها يا مارجريت ؟

وبعد برهة صمت قالت مارجريت :

ـ انى أتخلص من بعض خطابات أبى القديمة • فهناك خـطابات كثيرة جدا •• ولا أظن أنها تستحق مئونة الاحتفاظ بها

ـ أوه • كلا • كلا بالتأكيد • وأعتقد أنك تصرفت بحكمة • كل الحكمة . ولكنك نسيت مبلغ ما أتمتع به من دقة الملاحظة • فليس لدى ما أفعله طول النهار سوى الجلوس فى مقعد والاخلاد الى التفكير والمطالعة والمراقبة • وقد عرفت طول الوقت ماذا تصنعين • لقـــد كنت هنا أمس صباحا • أليس كذلك يا مارجريت ؟

ـ هذا صحيح

ـ والصباح الذى قبله أيضا ؟

ـ نعم

ـ لقد أدركت ماذا وراء ذلك • فلما أبصرت الدخان يتصاعد من المدخنة فى هذا الحر الشديد علمت أن تقديرى كان صائبا •• نعم يا مارجريت • أنت حكيمة جدا وكتوم • لقد أحسنت صنعا

ـ أماه •• لا أدرى ماذا تقصدين بهذا الكلام بالضبط !

ـ ولكننى واثقة كل الثقة أنك تدرين ماذا أقصد • ان المحـــامى

باسلو كان يريد أن يقتحم هذه الحجرة ويجرد محتوياتها ويأخذ جميع ما فيها من الخطابات • ولكنى أخبرته أنه من الخير أن يتركك تعثرين عليها

ــ ولكنى مازلت أجهل •• لست واثقة ••

ــ تعنين أنك لست واثقة من أننى أعرف • اعلمى اذن اننى أعرف مع أنى اؤكد لك أنى لم أقرأ هذه الخطابات • لاننى كنت دائما أفتقر الى الاكتراث بأمرها ••

ــ أماه • ليتك تكلمينني بوضوح

ــ ربما كلمتك بوضوح وصراحة • أما الآن فاجلسى وافرغى من احراقها كلها • وقربى مقعدى من المدفأة • فانى أريد أن أدفىء نفسى أيضا بنار هذه الرسائل !

وأطاعتها مارجريت • لانها وجدت راحة فى انهاء هذا الموقف العصيب والانصراف الى عمل ما • وركعت على الارض ودفعت ببقية الرسائل حفنة حفنة تدسها فى النار وهى صامتة

ــ والآن يا مارجريت ما رأيك فى أبيك ؟

وظل السؤال معلقا فى الصمت حتى ثقل به هواء الحجرة الحار ، واختلط برائحة العطر الذى تتضمخ به أمها ، وبشعاع الشمس الغاربة ، ورماد الورق المتطاير ، حتى أوشك الغثيان والاغماء أن يستوليا عليها • ولاول مرة فى حياتها روادها الشعور بأن الحياة فى جملتها لا تستحق عناء العيش على الاطلاق

وأخيرا أجابتها بقولها :

ــ لا أدرى

ــ لقد كانت صدمة لك بلا شك

فرفعت عينيها الى أمها وقد ارتسمت فيهما الحيرة وقالت :

ــ أماه • انى أشعر باعياء كلما فكرت فى هذا • هل هذا صحيح حقا ؟ يخيل الى دائما أننى فى حلم ، وأن ما عرفته غير صحيح !

ــ كلا يا ابنتى • لست حالمة • وانما أنت قد استيقظت لتوك من حلم طويل !

ــ أنا ؟

ــ انك تبدئين اليوم باكتشاف الكنه الحقيقى للحياة !

ـ ان كان كنهها أشياء من هذا القبيل • فخير منها الموت • انى اذن قمينة أن أفضل الموت

ـ تفضلينه على مواجهة الحقيقة ؟

ـ أماه لا طاقة لى على الجدل الآن • ولكنى أشعر أنه اذا كانت تلك الحقيقة شاقة على الآن ، فكيف تراها كانت بالنسبة لك طوال تلك السنوات •• طوال ذلك الماضى ؟

ـ لا تهتمى بهذا • فقد تعودته • وعشرون عاما يا ابنتى زمن كاف كى يألف الانسان أيما شيء

ـ عشرن عاما ؟ منذ ولادتى ؟

ـ بل وقبل هذا فيما أعلم • كان داء ملازما له

ـ داء ؟

ـ نعم •• داء العجز عن الاقلاع عن مخادنة النساء وهو داء تنتشر أعراضه بين الرجال كما تعلمين • ولكنك طبعا لا تعلمين فانك قد بدأت اليوم فقط تتعلمين •• نعم يا ابنتى • كان أبوك رجلا لطيفا فاتنا حنونا سخيا • كانت فيه كل الصفات التى يمكن أن يتمناها كل انسان •• ما عدا الزوجة !

ـ أمى •• لابد أن الامر كان شاقا عليك جدا • كان فظيعا !

ـ نعم • فى البداية فقط • ولكن بعد المرة الاولى لم يعد للامر أهمية • فالرجل لا يستطيع أن يؤذيك من هذا الطريق الا مرة واحدة فانك لا تستطيعين أن تغفرى له ذلك حتى وان قلت أنك قد غفرت له وتتوقعين دائما بينك وبين نفسك ، ان يحدث منه هذا الشيء نفسه مرة فى كل وقت • وحينما يحدث ـ وهو عادة يحدث ـ تجدين أنك غير مكترثة لحدوثه ••

ـ وفى حالته هو •• يتكرر الحدوث ؟

ـ كثيرا جدا • حتى أننى لم أعد أحصى الاحداث !

ـ ولكن ما أفظع هذا ! لابد أن الناس عرفوا ••

ـ أوه • كانوا يعرفون • كانت علاقاته حديث لندن كلها • ولكنه كان يمنى نفسه بأنى ربما كنت لا أعرف • ولا سيما حين لا أثير ضجة • فقد كان يكره الضجة • ويكره الشجار والخصام وكل ماهو من هذا القبيل • لقد كانت افكاره بسيطة جدا • بصورة عجيبة •

حتى أنه عندما تحدث منذ مدة قريبة عن الاقامة هنا بقية حيـاته ، خامره الاعتقاد بأنني سأرحب به أخيرا وأنا مفتوحة الذراعين ! لقـد كان رجلا لطيفا • لطيفا جدا !

ـ كان هذا هو اعتقادى فيه دائما !

ـ نعم • وكان اعتقادك هذا يريحه • أما أنا فلم يكن اعتقـادى فيه يريحه ، ولذا كان ينأى بنفسه دائما عنى ، ويستريح لابتعـادى المستمر عن طريقه • وكان مرضى طبعا حافزا للناس على زيادة عطفهم عليه •••

ـ أمى • لا أستطيع أن أتحمل سماع كل هذا

ـ ولكنك يجب أن تسمعى كل هذا •• لانها الحقيقـــة • انى أريدك أن تعرفى طرفا من الاشياء التى يستطيع رجل من طرازه أن يقدم عليها من غير أن يشعر بأنه يقترف خطأ خاصا • كان والدك عاجزا عن الاحساس بالخطأ ، كان يعتبر نفسه دائما كالتلميذ الشقى الذى ينبغى أن يغتفر الجميع له هفواته • وفعلا كان الجميع يغتفرون له هفواته • ولعلهم كانوا يظنونه يفعل ماهو طبيعى أن يفعله رجـــل مكبل بالاغلال الى زوجة عليلة مثلى • ولم يعلموا أننى بعد أول مرة وبعد أول اكتشاف •• حدث لى انهيار عصبى تركنى مقعدة •• على هذا النحـــو

ـ أمـاه !

ـ وكان أبوك شديد القلق على • وشديد الحـــدة أيضا •• لان الرجل المسكين لم يستطع أن يدرك ما هو السبب الذى أدى بى الى هذا

وبعد قليل سألتها مارجريت :

ـ وهل بومى يعرف كل هذا؟

ـ نعم • انه يعرف • ولكنى لم اخبره

ـ ماذا ترى كان شعوره ؟

ـ لابد أن شعوره كان كشعورى •• وهو أن الزواج على الجمله شىء فظيع وحقير • واولئك النساء اللواتى عاشرهن ابوك كن أسعد وأحظى بالحياة منى • لانهن حصلن منه على كل شىء فيما عدا الوفاء وهو شىء لم يكن ينتظرنه منه • وهى حياة لا بأس بها بالنسبة لامرأة

يمكن أن ترتضيها • أما من هن مثلى ومثلك ••

وقطعت عبارتها وسكتت قليلا ثم قالت :

ـ لا تتزوجى يا مارجريت •• لانك تنتظرين ممن يتزوجك أكثر مما يستطيع أن يمنحك اياه

ـ ولكن هناك بالتأكيد رجال • فريق من الرجـــال على الاقل فى طبيعتهم صدق ؟

ـ أظنك تفكرين فى فيليب ؟

ـ نعم أفكر فيه !

وومضت عيناها وهى تقول ذلك

ـ ••• ألست متفقه معى فى الرأى يا أماه ؟ أنا أعلم أنك لا تحبينه ولكن ألا تظنين أنه طراز الرجل الذى يخلص للمرأة التى يتزوجها ؟

ـ ليس ان تزوجك أنت !

ـ لماذا ؟

ـ لانه لا يحبك يا مارجريت انه مفتــون بك فقط • أولا لانـــك بذلت قصارى جهدك لتحمليه على ذلك • وثانيا لانه لم يجد شيئـــا اخر يشغل به فراغه فى المساء وهو هنا • ان اهتمامه الحقيقى موجه فى المقام الاول الى عمله • كل طاقته مصروفة فى هذا الاتجاه • كل قوته • أما ما تبقى منه وهو ضعفه ، فذلك ما قد يمنحــك أو يمنح سواك اياه • انه يذكرنى بأبيك من وجوه كثيرة

ـ نعم نعم من بعض الوجوه • أعلم هذا ولكنه لا يشبهه فى هذا بالذات • انه مخلص • أنا أعلم أنه مخلص وأثق به كل الثقــة ! انى أومن به كما أومن بأى شىء فى الدنيا !

وترنحت واقفة على قدميها ، وهى تشعر أن الدنيا كلها قد اختلطت معالمها أمام وجدانها ، فلم تبق لها الا الثقة بفيليب • انها يجب أن تثق به • يجب والا فلن تجد شيئا تثق به فى الدنيا !

وغمغمت قائلة لامها وهى تلتمس طريقها الى الباب :

ـ انى أشعر بالاغماء وسأخرج يا أمى لالتمس الهواء • وسأرسل اليك مينشن

وزار فيليب تلك الليلة ، وهى الليلة الاخيرة قبل رحيله • لانه

كان مزمعا أن يسافر فى قطارمبكر • وكان من المفهوم انهما سيتبادلان الرسائل كثيرا وسيلتقيان ثانية بمجرد اعداد العدة لذلك

ولم تكن لديه خطط معينة سوى أنه قد يمكث فى برمنجهـــام • فكل شيء يتوقف على عثوره على شخص يمكن أن يهتم با لته الجديدة وهى كذلك لم يكن لديها أى تفكير محدد • فلم يكن فى وسعها سوى الانتظار الى أن تستقر أمور تركة أبيها • فان آل اليها شيء ولو قليل من المال مثل ايراد سنوى يبلغ مائة أو مائتى جنيه ، فسيكون ذلك كافيا لتمكينها من الزواج من فيليب ومساعدته فى اختراعه • أما اذا لم يؤل اليها شيء على الاطلاق فانهما سوف يتزوجان ويخـــاطران بمواجهة الحياة فى شجاعة فهذا ما كانت هى مستعدة له ، موطنـــة النفس عليه . وظلا فى الليل يتجولان بين خمائل الحديقة التى يفوح عطر أزاهيرها فيعبق الهواء الندى • وجعل يقبلهــا • يلثم فاهـــا وشعرها ووجنتيها وجيدها • ولكنها كانت تريد أن تتكلم • تريد أن تتكلم عن المستقبل ، وتحدثه عن تلك الاشياء التى يمكن أن تزيدهــما قربا وتزيد صلتهما توشجا . ولكنه ظل يقبلها . فتركته غير مبالية مايصنع . وغفرت له ذلك فى يسـر ، لان الرجال كما تعلم هكذا خلقوا ولكنها تريد أن تتكلم وهو يريد أن يقبل بلا انقطاع • ولتعـــارض رغبتيهما ظل يتهمها بأنها لا تحبه

ـ انك غريبة الاطوار الليلة يامارجريت . لست كعادتك . انت الليلة باردة كالثلج ••

فقالت له بهدوء وبساطة وبلا انفعال :

ـ انى أحبك أكثر مما مضى يا فيليب !

ولكنها كانت تعلم انه لم يفهمها . واخيرا تركته يفعل ما يشاء ومع هذا ظل يشكو من برودها ••

وكانت متعبة عندما عادت الى البيت • فصعدت على الفور الى حجرة أمها لتحييها تحية المساء • ولم يكن الوقت متأخرا • فلم يزل بينهــا وبين منتصف الليل نصف ساعة ، ولكن أمها كانت قد نامت فوقفت ترقبها وهى راقدة . ولمحت مارجريت صورة الجمـــال الذى ذوى . وأحست بالجريمة الفظيعة الغريبة التى اقترفها أبوها حين حـــول ذلك الجمال الى مرارة • وانحنت فقبلت فى أسى عينيها النائمتين ،ثم

هبطت السلم مرة أخرى على نية التحدث الى فيليب بعض الوقت ٠ فهى ليلته الاخيرة ٠ وربما ليلته الاخيرة اطلاقا فى هذا البيت

ولما وصلت الى البهو رأت باب حجرة الجلوس نصف مفتـــوح ٠ ومن داخلها جاءها صوت ضحك ولغط حديث ٠٠ صـــــوت فيليب المتحمس الاجش وصوت ليلى الطفلى الحاد ٠ وكان فيليب قد قال لها شيئا أضحكها ، فأجابته بشيء من نفس الاسلوب

وكانت مارجريت وهى تعبر البهو تراهما بوضوح من خلال فرجة الباب ٠ وكانت ليلى مضطجعة فى استرخاء فوق الاريكة القريبـــة من النافذة . وكان فيليب واقفا بالقرب منها منحنيا نحوها قليلا وهو يبتسم ٠ وفجأة انفجرت ليلى تهتز بالضحك ٠ فقـال لها شـــــيئا همسا ٠ لابد أنه كان تحذيرا من ارتفاع صوتها ، لانها أجابته بغير مبـــالاة :

ــ أوه ٠ لا يمكن أن يسمعنا أحد ٠٠ فمارجريت فى الطابق العلوى الآن مع أمى ٠ ولا يمكن أن تعود بهذه السرعة

وعندئذ انقض فيليب بسرعة البرق وألصق فمه بفمهـــا فطوقت عنقه بيديها

وتراجعت مارجريت فى صمت وسارت مبتعدة ٠ فلم يعد هنـاك ما تريد أن تراه أو تسمعه ٠ وصعدت السلم مرة أخرى وأغلقت عليها باب حجرتهـــا

كانت هادئة تماما ٠ أشد هدوءا مما كانت فى أى وقت من حياتها ٠٠٠ لقد كان الذنب ذنب ليلى على الخصوص ٠ لانها كانت تشـجع الرجال دائما على مغازلتها ٠ ولكن ليس المهم الآن ذنب من هذا ٠ فلا قيمة للامر كله ٠ كل ما هناك أنها تشعر الآن بأن فى الدنيا أشـياء ــ وهذا الامر من بينها ــ لا يمكن احتمالها ٠ لانها مستحيلة

وبعد قليل خلعت ثيابها وبدأت تبكى ٠ انها تحبه كثيرا جـدا ٠ وهى تعلم أنه لم يقصد سوءا ٠ فهو فى هذا على شاكلة أبيها تماما ٠٠

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى كان ضوء الشمس يتسلل اليها حين جلست الى مائدة زينتها الصغيرة وتناولت ورقة وقلمـــا وكتبت الخطاب التالى بجرة قلم واحدة :

« عزيزى فيليب

« يؤلمنى كثيرا جدا فى الحقيقة ان أجدنى مضطرة لتسطير هـذا الخطاب اليك • لانى أعلم أنه سيبدو شديد القسوة عليك بعـد كل ما حدث • ولكن لاحيلة لى • لانى أشـعر أن الواجب يقتضينى أن أطلعك على الحقيقة • فأنا لا أستطيع أن أتزوجك • وليس هذا لانى لا أحبك • وليس هذا أيضا لسبب يتعلق بالمال من قريب أو بعيد بل لانى لا أعتقد أننا سنكون سعيدين معا • انى شديدة الاسـف يا عزيزى فيليب ولا أدرى ماذا أقول لك أيضا • ولكنى سأفكر فيك دائما وأتمنى أن يحالفك التوفيق العظيم فى عملك •••

المخلصة

مارجريت

ورد عليها برجوع البريد برسالة طويلة كتبت على عجـل غـير متسقة العبارات • زعم فيها ـ بين ما زعم ـ أنها تخلت عنه لانه لم يوطد أمر مستقبله بعد • واعترف أنه لم يصادف حتى الآن شـيئا من النجاح • ولكن هذا ليس ذنبه • ثم ختم خطابه بأن طلب منها أن تقابله فى شلتنهام ان كانت أمها ترفض أن يأتى الى البيت • وأعرب عن ثقته بأن شيئا ما قد أسىء فهمه • ولكنهما يستطيعان التغلب على ذلك بحديث قصير يتم بينهما فى أى مكان

وعلى الفور كتبت اليه الرسالة التالية :

« عزيزى فيليب :

« ينبغى ألا تحضر لمقابلتى هنا • واعلم أنى لا أستطيع كذلك أن اذهب الى شلتنهام . وفضلا عن هذا ينبغى أن توقن بأن المقابلة لن تغير شيئا من عزمى • فليس هناك سوء فهم أو سوء تفاهم • وانما هناك السبب الذى ذكرته لك فى خطابى ، وهو أننى لا أعتقد أننـا سنسعد معا ان تزوجنا • ويؤسفنى أنك تظن بى أشياء كثيرة لاصحة لهـا

المخلصـة

مارجريت

وعاد للكتابة بأسلوب أكثر انفعالا فاتهمها بالغدر به لان اختراعه اكتنفه الفشل حتى الآن ، فاعتقدت أنه انسان لا خير فيـه ولا فى

اختراعه · ثم قال لها ـ فيما قال

« من المؤسف أنك لا تثقين بى وليس لك مثل ايمـــان أبيــك بمواهبى واختراعى · »

فكان صدور هذه الاشادة منه الى أبيها · ومنه هو بالذات من دون جميع الناس سببا فى زيادة تصميمها وهدوء نفسها فاجابته

« عزيزى فيليب :

« انى أقدر شعورك نحو اختراعك وان كنت تظـــن أننى لا أقدر ذلك والحقيقة أنى أومن به كما كنت أومن به من قبل واذا اتضح لى من تصفية التركة أننى أستحق مبلغا من المـــال أيا كان ، فثق أننى سأقدم اليك من هذا المال كل ما أستطيع أن أستغنى عنه كى تمضى فى تحقيق اختراعك واخراجه الى حين الوجود ، كما كان أبى يريد أن يصنع · ولكن لا حاجة بنا لان نلتقى

المخلصـــة

مارجريت

وجاءها منه بعد ذلك خطاب آخر · خطاب ملىء بالسخط والاتهام فأجابته اجابة موجزة :

« عزيزى فيليب :

« لم أستطع أن أفهم شيئا من خطابك · أو على الاقل لم أستطع أن أفهم مبررا لما ورد فيه من عبارات · فان عدت للكتابة الى بنفس الاسلوب فلن تتلقى منى ردا

مارجريت

□

وكان واضحا أنها أغفلت فى هذه المرة كلمة المخلصة أو الودود · وكتب اليها خطابا آخر ··

ولم ترد !

الفصل الثامن

بعد عشرين عاما

وقف بومى فى قاعة المائدة يضع فى طبق أمامه كمية من البيض المقلى المعد للافطار ، وقال لاخته مارجريت :

ــ هذا شىء صغير وجدته صدفة فى أحد حوانيت الطرائف فأنت مغرمة بالالوان الفنية . ولذا طلبت منهم أن ينظفوه ويرسلوه اليك

وقطعت مارجريت الخيط الذى يضم اللفافة الصغيرة ، ثم فتحت الصندوق الصغير الذى بداخلها وكان على شكل قلب من المخمل الاسود . وبداخل الصندوق فوق الوسادة الصغيرة الحريرية ، رأت حلقة من البلاتين بها فص أسود عنبرى اللون فى حجم ثمرة اللوز ... حلية بديعة ملفتة للنظر !

وهتفت مارجريت مبتهجة :

ــ ما أجمله يا بومى ! انه جميل جدا . أليس كذلك ؟ وكم هو جميل منك أن تفكر فى احضاره لى !

ووضعت الخاتم فى اصبعها وأخذت تنظر اليه معجبة

ــ سأحبه كثيرا . أنظر ! انه يكاد يضاهى لون شعرى !

ــ انه من الحجر الكورنيلى . وهو ليس حجرا ثمينا جدا بالطبع ولكنه مع هذا لطيف وجذاب

وجلس بومى الى المائدة . وهو رجل طويل القامة نحيف مهيب المنظر عن بعد . يبدو أنيقا جدا فى ملابس الرائد العسكرى . وكان واضحا أنه رجل دقيق فى حركاته أنيق رقيق فى عاداته الشخصية. ومنظره لا بأس به بالنسبة لسنه . وان كانت ذقنه أصغر قليلا جدا مما ينبغى وأنفه أكبر قليلا مما ينبغى . وفى مقابل هذا كان لون

بشرته ناضرا كبشرة الصبيان . وتكوين راسه جميلا . وعيناه لونهما مزيج من الرمادى والبنى . وشعره شبيه بشعر مارجريت ، ولكنه خال من ذلك الطيف النحاسى . فهو أحمر اللون حولت الايام اطرافا منه الى حمرة كالحة تضاهى لون انرمال . أما حين يبتسم ، فهو يبدو فى أحسن صوره لان له فما جميلا وأسنانا بديعة

وكانت سلة المهملات الى جوار مقعده وبين الحين والحين ، فى خلال الطعام ، كان يفض رسائله بخنجر صغير من العاج ، ويلقى بالمظروفات الفارغة الى السلة . ثم ينظر فى الخطابات نظرة عاجلة ويضعها على أحد جانبيه . وكانت مارجريت تفعل مثل ذلك برسائلها ، ولكن بأناقة اقل منه بكثير . وكانت رسائلها قليلة أما هو فكانت رسائله تزيد على العشرين

وقال وهو يفض الرسالة الاخيرة :

ـ لابد ان الناس سيكتشفون عنوانى الخاص ويرسلون الى هنا خطاباتهم المتعلقة بالعمل . وأظنهم يستخرجون العنوان من دليل التليفون وما الى ذلك . وهذا فى الحقيقة مما يبعث على الضيق . فبين هذه الرسائل ثلاث أو أربع كان ينبغى أن توجه الى المكتب

وانصرف الى الطعام برهة . ثم أكل ثمرة من ثمار الخوخ وقال :

ـ تيدى ليستر كتب ينبئنى أن ابنه ستيفن جرح فى آخر معركة كبيرة ... فهل نحن نعرف ستيفن ؟ أنا لا أذكر انه زارنا هنا ... لابد أن أكتب الى تيدى على كل حال ... وهناك رسالة موجزة من ليدى هوجان ، تطلب ان يقوم احدنا بافتتاح سوق خيرية فى اليوم الخامس عشر من الشهر . فهل لك أن تقومى بهذا العمل ؟ فأنا أكره الاشياء التى من هذا القبيل . أما بينج فيقول انه يقضى وقتا جميلا فى باريس مع رجال وزارة الحربية الفرنسية . وانهم سيمنحونه وساما . وهذا شىء يفرحه كما تعلمين !

وكانت الساعة التاسعة صباحا ذات يوم بديع من أيام سبتمبر وحجرة الطعام تغمرها الشمس المشرقة . والحجرة نفسها بديعة تكسو جدرانها أخشاب البلوط السوداء ، وبها مدفأة ضخمة كثيرة الزخارف

وقبل نهاية الفطور دخل الساقى بصحف الصباح التى وصلت

فى تلك اللحظة فتناول بومى التايمز ، وتناولت مارجريت الديلى ميل . وبعد قليل هتف بومى وهو يرفع رأسه عن الصحيفة :

ـــ ما أغرب هذا ! هنا نعى لمستر هولباين سميث . فهـل هو نفس الشخص الذى قابلناه فى مارينباد سنة ١٩١٠ ؟

ولم تكترث مارجريت وقالت أنه ربما كان هو . وتطلع بومى الى ساعة معصمه العسكرية ثم نهض قائلا :

ـــ لابد لى من الذهاب اليوم الى المصانع . لانه لابد أن يكون هناك احد فى مدة غياب بينج

واخرج من جيبه الجانبى علبة بديعة من الذهب المزخرف بالميناء وأشعل سيجارة مصرية . ثم قال :

ـــ لقد نسيت يا مارجريت ان اخبرك عن نبأ آخر تضمنته رسائلى فهناك خطاب من قوم عرفتهم منذ سنوات فى سان فرنسسكو هم آل كارول . ويبدو أن ابنهم الوحيد فى الجيش الامريكى المعسكر هنا بالقرب من اكسفورد . وقد اعطونى العنـوان ... واظنهم يتوقعون منا أن ندعوه لزيارتنا

ـــ أتظن أن ذلك سيضجره ؟

ـــ أهم من هذا السؤال بكثير أن نسأل انفسنا هـل ينبغى أن ندعوه ؟ يمكننا أن نغامر بدعوته على كل حال ، لان آله كانوا مثقفين ومن المنتظر أن يكون ابنهم على مايرام . ولعلنى أرسل اليه اليوم سطرا او سطرين ان تذكرت هذا الموضوع

ووضع التايمز بعناية تحت ذراعه وابتسم لمارجريت ثم خـرج الى البهو ، فتناول قبعته وقفازيه وعصاه ، ورد على تحية سائق فى ثياب الانباشى . ثم اتجه الى السيارة التى تنتظره

وهكذا بدأ يوم آخر من أيامه المشحونة بالعمل

وفى المساء جلس بومى فى مواجهة مارجريت على المائدة الكبيرة ، وبينهما امتار من التيل الابيض الذى كوى بغير نشا ، مساهمة فى المجهود الحربى للحلفاء . وسألها كالمعتاد :

ـــ هل الوالدة على مايرام ؟

واجابته مارجريت كالمعتاد أيضا :

ـ كما هى . وقد اخبرتنى أنها ستنزل لمقابلة بينج عندما يعود
ـ اتراها تحب بينج ؟
ـ يبدو هذا
ـ أمن المستحسن أن نقيم مأدبة صغيرة ؟
ـ اظن هذا
ـ لن يكون هناك الا بينج وليلى . وربما أيضا ... مسز كلهون والكابتن لورانس !
ـ هذا حسبنا . فالطاهية لن تستطيع اكثر من هذا

واومأ بومى الى الساقى ان يأتيه بزجاجة أخرى من نبيذ البرجندى وقال بعد ان ذهب الساقى ليأتى بالنبيذ :
ـ هذا المخلوق لا يبدو نشيطا جدا
ـ انه خير ماتستطيع الحصول عليه فى الظروف الراهنة
ـ م . م ... بهذه المناسبة قابلت أمس مينشن وأنا خارج من مكتب البريد فى القرية بعد الظهر فأخبرنى انه بلغ اليوم التاسعة والسبعين من عمره . شىء لطيف . اليس كذلك ؟
ـ الم تعطه شيئا ؟
ـ خمسة جنيهات ... فلم يكن معى أقل من هذا . والحقيقة انتى لم أندم على ذلك . فالمؤسسة تحقق أرباحا كبيرة فى المدة الاخيرة
ـ أوه ؟

وعبث بومى بقطعة من الخبز ثم قال :
ـ أطلعت على الارقام اليوم وهى أرقام مدهشة . ويبدو أن الحكومة تغرقنا بالمال . ولاحظت أن بينج يطالب الحكومة دائما بأسعار هى ضعف ما ينبغى أن يطالب به فى الحقيقة ... ولا مفر من الاعتراف بأنها فضيحة من الطراز الاول ! ولكن يخفف من وقع هذا على نفسى أن الحكومة تسترد الجانب الاكبر من الايرادات فى صورة ضرائب !

واستمر الحديث بينهما على هذا النحو الى ان تناولا القهوة . ثم ذهبا الى قاعة الاستقبال ، وطالعا صحف المساء . وكان أهم الانباء فى تلك الليلة النجاح الكبير الذى أحرزه الحلفاء على خط

هندنبرج . فهل ترى بدأت موجة النصر تنحسر عن الالمان ، وتتحول الى جانب الحلفاء ؟

وأدار بومى الحاكى فسمعا مقطوعات من شومان ثم ذهبا الى فراشيهما . وكان آخر ما قاله لها عند باب حجرته :

ــ على فكرة ! لقد كتبت الى ذلك الفتى كارول !

ــ ومتى طلبت منه أن يحضر ؟

ــ اقترحت عليه أن يحضر للعشاء ذات ليلة وان يبقى لدينا حتى الصباح . ولكنهم فى المعسكر قد لا يسمحون له بذلك . وعلى أى حال سنتلقى منه ردا

ومرت أربعة أيام من غير أن يأتيهم رد . وعاد من باريس فى خلالها بينج . أو فلندعوه باسمه الكامل: الكولونيل اوين بينجلي. وجاء معه من باريس بطلبات عاجلة من سيارات لوفل فرينشام. وحضرت ليلى من بورتسموث . وحددت مأدبة العشاء فى ليلة ٩ سبتمبر . الموافق يوم الاثنين. وقبلت مسز كلهون والكابتن لورانس الدعوة

وبعد ظهر يوم الاثنين . قرب وقت الشاى جاءت هذه البرقية

« حصلت على اجازة وقادم الليلة . شكرا ــ كارول »

وكان بومى فى الحديقة يتفقد أزهاره المحبوبة عندما جاءته مارجريت بالبرقية . وقالت له :

ــ هذا موقف محرج للغاية

فاجابها بومى بمجرد قراءة البرقية :

ــ رديه الى معسكره بمجرد وصوله . لا أظن أن هناك مجالا لتصرف آخر . اليس كذلك ؟

ــ لقد ظن أن الدعوة مفتوحة ، وأنه يستطيع ان يختار أى ليلة يشاء . وهذا مؤسف ... وطبعا سيفسد نظام المائدة اذا حاولنا أن ندبر له مكانا عليها

ــ المائدة ؟ هناك يا عزيزتى مارجريت ما هو أهم من ذلك . لا يسعنا بأى حال ان نقبل وجوده . فنحن اولا ليست لدينا أية فكرة عن شخصيته . وبفرض انه ألطف انسان فى العالم ، فهذا لن يمنع بينج من كراهيته لانه أمريكى .. ابرقى اليه اننا لن نكون

فى البيت الليلة. اواى عذر من هذا القبيل يصلح لمنعمن الحضور
وأرسلت مارجريت برقية بهذا المعنى، وعاد الهدوء الى الاسرة
وذهبت مارجريت الى حجرتها فى وقتمبكر لترتدى ثيابالسهرة
وكان عليها أن تقوم برعاية أمها، والاشراف على تبديل ثيابها للنزول
الى قاعة المائدة . لان الام مصرة على ذلك كى تقابل بينج . وظلت
تنتظر هذه الفرصة منذ أيام

وابتسمت مارجريت وهى تفكر وحدها فيما سيترتب على هذا
الاصرار ، اذ لا بد من اشعال النار فى مدفاة قاعة العشاء رغم دفء
الجو فى ذلك المساء . ولابد ايضا من دفع الكرسى المتحرك الى
موضع قريب من النار على المائدة كى يتسنى لها الاستمتاع بالدفء
والاستماع الى الحديث والمشاركة فيه بين الفينة والفينة

يالها من امراة مدهشة ! ففيما عدا الروماتيزم الذى لم يزدد
سوءا منذ سنوات ، فهى تتمتع بصحة جيدة للغاية . وكان
فرجيسون يقول دائما انها لا تشغل نفسها بشىء ، ولذا فمن
المحتمل ان تعيش الى آن تبلغ المائة !

وساعدتها مارجريت فى ارتداء ثيابها . وروت لها اثناء ذلك
مسألة كارول . ثم تركتها وعادت الى حجرتها لتتم زينتها ، وقد
سمعت أصواتا فى البهو ، استنتجت منها أن بعض الضيوف قد
حضروا مبكرين . ثم دخلت عليها الخادمة وقالت لها لقد أرسلنى
كوكسون ياسيدتى لاخبرك أن هناك جندى حضر لمقابلة الرائد

ولم يكن فى ذلك ما يدعو للدهشة ، فما أكثر حضور الجنود فى
مهام لمقابلة الرائد . ولذا استغربت حضور الخادمة بهذا النبأ
فقالت الخادمة :

— والرائد فى الحديقة ياسيدتى ولذا قال كوكسون انك ربما
رغبت فى مقابلته بنفسك لتسأليه عما يريد

— وماذا عساه يريد ؟ ألم يسأله كوكسون ؟

— اظنه سأله ياسيدتى ولكن الجندى ينتظر فى البهو

— سأنزل وأراه بمجرد انتهائى من زينتى

وأسرعت باتمام زينتها ثم نزلت فوجدت جنديا طويلا
جدا يتقدم لملاقاتها ويقول لها بهدوء :

ـ اسمي كارول .

فهتفت مارجريت وهي تحملق فيه بغباء :

ـ أوه !

وكان الموقف في غاية الحرج حقا . فأخوها بومي بعيد عن الدار وسط الحدائق الواسعة ، ومن المستحيل عليها أن تتبادل معه المشورة . وبينج وليلى ومسز كلهون قد يصلون في أية لحظة . والمائدة معدة وجميع الاسماء وقوائم العشاء مكتوبة وموضوعة على المائدة في أماكنها ... ولاحظت انه يحمل حقيبة صغيرة في يده اليسرى ، أما يده اليمنى فممدودة نحوها ، فتناولتها بطريقة آلية ، فضغط عليها ضغطة قوية نبهتها من ذهولها . فقالت له وهي تدعو الله أن يتأخر حضور بينج بضع دقائق :

ـ تفضل بالدخول الى قاعة الاستقبال

فوضع حقيبته وقبعته فوق مائدة البهو وتبعها

ـ كان كرما عظيما من مستر فرينشام أن يدعوني . لاني كنت أشعر بشيء من الوحشة فيانجلترا . ومن الجميل أن يجد الانسان هنا صديقا . انت فيما أظن مسز فرينشام ؟

ـ كلا كلا ... أنا أخته . أخت الرائد فرينشام

ـ الرائد ؟ لم أعلم انه في الجيش البريطاني . في أية فرقة هو ؟

ولم تكن تعلم بالضبط . فلديها فكرة غامضة بأن بومي لا ينتمي الى أية فرقة . فقالت :

ـ انه ليس ضابطا في الجيش العامل . فهو حائز على الرتبة العسكرية، ولكن مهمته التفتيشفي انحاء الريف على آلاتالطائرات

ـ ياله من عمل مجيد ! وانتم طبعا اصحاب سيارات لوفل فرينشام ؟

ـ نعم

ـ انها سيارات رائعة . وهي ذات سمعة عالية حتى في أمريكا

وكلمة حتى في أمريكا هذه من طراز الكلمات التي تثير ثائرة بينج

والقت على وجهه نظرة فوجدته شابا وسيما ذاعينين زرقاوين بلون الفولاذ . ملامحة دقيقة. ويبدو عليه انه من أسرة كريمة وانه تلقى تعليما حسنا . وضغطت على زر الجرس وقالت له بهدوء :

ـ لعلك تحب أن ترى حجرتك ؟ العشاء سيكون بعد نصف ساعة

ودخل الساقى كوكسون فقالت له :

ـ خذ هذا السيد الى الحجرة الصغيرة فى البرج

وبعد خروجه مع الساقى اسرعت مارجريت الى المطابخ وتوسلت الى الطاهية أن تعيد توزيع الاصناف كى تكفى بضيف طارىء . ثم خفت الى قاعة العشاء ، ودبرت مكانا سابعا على المائدة بمساعدة الخادمة . وكانت تعلم أن بومى سيضيق بهذا لانه يكره جميع التعديلات المفاجئة ولكن لابد مما ليس منه بد ...

ورأت بومى قادما مع الكابتن لورانس فأسرعت اليه وأخبرته بما حدث ، فاستاء بومى ولكنها ضحكت وهونت عليه الامر

واقبلت ليلى مع بينج . وكان بينج فخما فى كسوة الكولونيل . يختال زهوا . اما ليلى فكانت تحمل آثار وضع آخر أولادها . وترتدى قرطا من الزمرد غالى الثمن أحضره لها بينج من باريس . وانتهزت مارجريت الفرصة فشرحت لهما موضوع حضور كارول المفاجىء ، فقال بينج :

ـ سيسرنا أن نقابل اى صديق من أصدقاء بومى . ماذا هو ؟ رائد ؟ ملازم ؟ أم ماذا ؟

ولم تكن قد فكرت فى الموضوع من هذه الزاوية من قبل فقالت:

ـ أظنه جنديا عاديا . نفر فيما أعتقد . ان كان فى جيش هؤلاء الامريكان أنفار !

فضحك بينج ساخرا ، وفى هذه اللحظة دخل كارول . وكانت قد أعدت له مكانا بينها وبين ليلى . وفى الجهة الاخرى يجلس بومى بين كابتن لورانس ومسز كلهون . وسيطر بينج على الحديث كعادته دائما . فهو متحدث بارع له دراية بأشياء كثيرة . وله معرفة بأشخاص كثيرين، ولذا لا تخلو جعبته من حكايات طريفة عن الناس

ولكن مارجريت كانت لا تحب منه هذه السيطرة على المجلس، وتتمنى لو أنه ترك لسواه فرصة الكلام . الا انه فى اعتقادها كان زوجا موافقا لاختها ليلى التى بدت مزهوة ببريق قرطها الجديد الثمين

وتحدث بينج عن الدسائس داخل الوزارة . وعن مونمارتر فى زمن الحرب : وعن الجنرالات الفرنسيين وحكاياتهم مع زوجاتهم

وعشيقاتهم . وعن بوانكاريه وكليمنصو وغيرهمـــا من المشـــاهير الذين قابلهم أثناء زيارته الاخيرة لباريس . وروى عدة نكات لهـــا اكثر من مغزى. فضحك منها بومي كثيرا ولكن مسز كلهون تصنعت عدم فهم احداها، فكان ذلك مدعاة لامعان الرجال الثلاثة في الضحك

اما الرجل الرابع فلم يكن في نظر مارجريت سوى غلام . وهي تحب الغلمان . فسألته بهدوء وبصوت خافت اثناء انشغال الاخرين في الضحك :

ــ كم مضى عليك من الوقت في انجلترا ؟

ــ نحو ستة اسابيع

ــ وكم من الوقت تتوقع أن تبقى هنا ؟

ــ نحن في انتظار الاوامر للسفر في اية لحظـــة الآن بعـــد ان انتهينا من تدريبنا

ــ ان الانباء الاخيرة الواردة من الميدان انباء مبشرة

ــ جدا

ــ وهل انت متشوق للذهاب الى الميدان ؟

ــ جدا

ــ ولكن الا تشعر بالاسى لبعدك عن أهلك كل هذه المسـافة ؟

ــ هذا شيء بغيض طبعـــا . والواقـــع اني هربت من البيت وتطوعت بدون علمهم

ــ هذا عمل فيه قسوة

ــ كان هذا اسهل على نفسي من مواجهة المناقشة والمعارضة . ولك أن تعتبري تصرفي منطويا على الانانية

ــ كلا كلا . اني أتصور شعورك . اتعلم أنني أشعر دائما بالاعجاب لان الامريكان انضموا الينا في القتال ؟ انهم يعيشون بعيدا عنا جدا وكان من السهل عليهم أن يعتقدوا بأن المسالة لا تعنيهم

فقال لها باسما :

ــ انت اول شخص انجليزي أسمعه يقول هـــذا . أما كثرتهم فيتذمرون لاننا لم ندخل معكم الحرب منذ أغسطس ١٩١٤

وكان بينج يصغي للجزء الاخير من الحديث فتدخل قائلا :

ــ ان الامريكان بارعون . فقد دخلوا الحرب في النهاية ليكونوا

فى الجانب الرابع . فلديهم حاسة اقتصـــادية مرهفة . واظنهم متفائلين جدا بخصوص الحرب فى نيويورك ؟

ـ لا ادرى . فلم اذهب الى نيويورك مطلقا

ـ حقا ؟

ـ انى اعيش فى بلد يبعد ثلاثة آلاف ميل عن نيويورك . فحين تتوقع منى ان اكون فى نيويورك يشبه ان اتوقع منك ان تـكون فى جبال الاورال

وكان ردا بارعا كما قال لها بومى فيما بعـد ، وبدات مارجريت تشعر بالاطمئنان الى سلامة روح السهرة . وســاعد على ذلك جودة الشمبانيا والنكات المكشوفة نوعا ما التى أطلقها بينج فساد المرح جميع الموجودين . وفى قاعة الاستقبال استمع الجميع الى قليل من الموسيقى ، ثم حيتهم مسز فرينشام العجوز واحدا واحدا ثم دفع الساقى مقعدها نحو حجرة نومها . وبعد قليـل استأذن الضيوف فى الانصراف وبدأ السائقون يجهزون السيارات للرحيل

وكان الليل صافيا والهلال ظاهرا فى الافق الشرقى . وشعرت مارجريت بالراحة والانشراح لنجاح المأدبة وللانتهاء من شواغلها. وانصرف بومى الى الحديقة الشتوية ليبحث مع البستانى أعمـال الغد وجلست مارجريت مع كارول فى حجرة الاستقبال وحـدهما وقالت له :

ـ أرجو الا تكون شـعرت باستياء للهجـة بينج . فهـو يكره الامريكان

ـ لا بأس . فمثل هذه الأمور لا تؤلمنى

ووجدت أن الفرصة مناسبة لتفسير البرقية التى سيجدها ولا شك فى المعسكر عند عودته . فقالت له :

ـ سأكون صريحة معك. الحقيقةاننا لم نكن راغبين فى استقبالك الليلة . وتوقعنا الا يكون هناك انسجام بينك وبين بينج . فأرسلنا اليك برقية نتعلل بعذر من الاعذار لمنعك من الحضور .. ولكنك حضرت ومرت الليلة بخير

ـ ولكنى آسف جدا . فلابد ان البرقية وصلت الى المعسـكر

بعد انصرافى . كان ينبغى أن تخبرينى لحظة وصولى

ــ لا تفكر فى هذا الامر . فقد سرنى حضورك

ــ حقا ؟ اتعنين هذا حقا ؟

ــ ولم لا ؟ يجب أن تعود للزيارة عندما لا يكون بينج هنا

فابتسم وقال :

ــ أظنك تحسبيننى اشعر بالخشية منه . الواقع انى أستظرفه

ــ حقا ؟ بعض الناس لا يستظرفونه حتى بعدان تتوثق معرفتهم به . انه مهذب جدا . ولكن عيبه أنه يحب السيطرة

ــ وانت ؟ الا تحبين ان يسيطر عليك احد ؟

ــ لقد كنت دائما أرفض كل سيطرة على . ولهذا أشعر بتوتر فى أعصابى كلما كان بينج هنا !

وفطنت الى انها تكلمه كما لو كانت تعرفه منذ سنوات . فجعلها ذلك تتوقف فجأة عن الكلام . وطال الصمت الى ان قال لها وهو يتجه بنظره ناحية المعزف الكبير :

ــ اتعزفين ؟

ــ قليلا ما اعزف . وهل تعزف انت ؟

ــ قليلا جدا ايضا . ولكنى لم المس معزفا منذ شهور

ــ اذن فلا بد أنك تتحرق شوقا الى لمس هذا المعزف

ــ هذا هو الواقع . فهل تسمحين لى ؟

ــ طبعا

فنهض من جوارها وجلس الى المعزف وسكت برهة كأنه عاجز عن التفكير فى القطوعة التى يحب أن يؤديهـا . ثم شرع يعزف مقطوعة من شوبان من مقام س الصغير . ولكنه بعد قليل بدأ يتردد فى العزف ويتعثر . فقال :

ــ آسف . هذه المقطوعة أصبحت عسيرة الاداء على الآن . لقد تيبست اصابعى . سأحاول شيئا اسهل منها

ثم عزف مقطوعة ضوء القمر من تأليف ديبوس . فكان بارعا رشيقا فى لمساته . وبعد الانتهاء من النغمات الاخيرة قال لها :

ـ ان المعزف بديع الاداء

فاجابته بهدوء قائلة :

ـ وكذلك عزفك

فاحمر وجهه خجلا وقال متلعثما :

ـ بل المعزف هو الرائع حقا ... صوته غني .. وحنون

ـ هذا لانه عتيق . لقد اشتريناه من ال شتاينواى عام اليوبيل الماسى للملكة فيكتوريا . وكانوا قد اشتروه مستعملا أيضا

ـ ياله من معزف عتيق رائع . ان عام اليوبيل هـو عام مولدى

ـ وانا كنت يومئذ فى العشرين . واتذكر انى ذهبت مـع أبى لمشاهدة المهرجان الكبير

فدار فوق المقعد المستدير وحملق فى وجهها قائلا :

ـ اذن انت فى الحادية والاربعين الآن ! ولم أكن أقدر لك أكثر من الثلاثين عاما واحدا !

ـ هذه تحية لطيفة من جانبك !

ـ لم اقصد المجاملة . هى الحقيقة !

فضحكت . وفى هـذه اللحظة عاد بومى . وذهب الثلاثة الى قاعة لطعام حيث شربوا كأسا قبل الذهاب الى الفراش . وقـال بومى أنه يريد أن يطوف مع كارول الحدائق فى الصباح . فادى ذلك الى مناقشة برنامج كارول . لكنه قال بأنه يجب أن يعود الى المعسكر ظهرا . ولذا يجب أن يستقل قطار التاسعة والثلث . فقال بومى :

ـ هذا معناه انك سوف لا ترى الحدائق . وهذا القطار بطىء ومزعج . لو انه امكننى الاستغناء عن سائق لكلفته أن يوصلك الى المعسكر فى احدى سياراتى

فقالت مارجريت على الفور :

ـ سأوصله فى سيارتى أنا يابومى بعد أن يشاهد الحدائق

ـ هذا ازعاج شديد لك بسببى !

ـ لا عليك . انى أذهب كثيرا الى اكسفورد لشراء ما يلزمنى . وهناك أمور كثيرة سيمكنني قضاؤها هناك غـدا . فلن تذهب الرحلة معك سدى

الفصل التاسع

سؤال

نعم كان بومى مبتهجا بمعرفته . فآله يملكون حديقة كبيرة كما قال لمارجريت فى صباح اليوم التالى وهى جالسة فى سيارتها ذات المقعدين تنتظر قدوم كارول بحقيبته · واستطرد بومى يقول :

ـ وليست حديقتهم طبعا كهذه الحديقة . ولكنها مع هذا حديقة لطيفة . تصورى أنه قال لى أنهم يستنبتون الازهار التى نزرعها هنا فى الحديقة الشتوية تحت الزجاج ... يزرعونها هناك هكذا فى الهواء الطلق بغير تدفئة خاصة . وهو حقيقة شاب لطيف المعشر بصورة خارقة للعادة · وأعتقد أنه عرف كيف يصمد لبينج فى الليلة الماضية . وبينج كما تعلمين يحتاج الصمود له الى صفات خاصة ولم يتسع وقتى كى أريه جميع أرجاء الحدائق للاسف الشديد . ولذا يجب أن يأتى مرة ثانية ليشاهد البقية

ـ لعلنا اذن سندعوه للحضور فى عطلة الاسبوع القادمة ؟

ـ هذه فكرة طيبة . نعم . وجهى اليه الدعوة على كل حال ... والآن يجب أن أسرع بالذهاب ، وقد ودعته قبل ان يصعد لاحضار الحقيبة . فلابد لى من البت فى موضوع كارديف اللعين

وانصرف على عجل فشيعته مارجريت بابتسامة

وكانت الساعة العاشرة صباحا · والشمس ساطعة · ولا شك انه سيكون من السهل الوصول بالسيارة الى اكسفورد قبل الظهر . ولما ظهر كارول وراء السيارة ابتهج كثيرا وقال :

ـ كنت اخشى أن تكون من نوع الليموزين الضخم

فضحكت مارجريت وقالت له :

ـ انا اكره السيارات المقفلة

فقفز الى جوارها وانطلقت به . وكانت السيارة مريحة ومن أكثر منتجات لوفل ـ فرينشام شعبية ٠ وكانت مارجريت تقودهـــا فى يسر وثقة ، فشعر بالسعادة منذ أول لحظة . وعنـــدما وصلت السيارة الى الطريق العام ، وغادرت الاسوار قال لها :

ـ بهذه المناسبة . لقد أحببت شقيقك كثيرا

ـ حقا ؟ لشد ما يسرنى هذا !

ـ والحدائق . . . ما أروعها !

ـ الناس كلهم يقولون هذا ، مع أن الحدائق قد أهمل شأنها فى المدة الاخيرة اهمالا كبيرا ، لانه لم يعد فى استطاعتنا بسبب التجنيد ان نستخدم أكثر من بستانى واحد متفرغ ، ولكن بومى يعيش من أجل هذه الحدائق ، حتى اننى اقول دائما انه يفضل فى حالة قيـــام الالمان بغارة جوية على هذا المكان ان يصبوا قنابلهم على البيت لا على الحديقة والاشجار !

وانساب الحديث بينهما هينا ، وكارول يبدى افتتانا بالمنـــاظر الجميلة على طول الطريق ، ويقارن بين هذا الجمال فى المســاحات الصغيرة وبين الآفاق الشاسعة المترامية فى أمريكا

ـ ولكنك ستحبين أمريكا . ولا اقصد طبعا نيويورك والمدن الكبيرة بل تلك الاجزاء الهادئة التى لايزورها السياح عادة ، مثل أوريجون وتكساس ولويزيانا

ثم أخبرها مزيدا عن نفسه فهو ولد وحيد ، واله ليسوا من كبار الاثرياء ، لان والده خسر فى المضاربات فى المدة الاخيرة ، ومع هذا استطاع ان يدبر أمر ارساله الى جامعة ولاية كاليفورنيا فى بيركلى . وكان فى السنة الثالثة موفقا فى دراسته عندما دخلت أمريكا الحرب فغير ذلك كل شىء فى حياته ، فأغراه حب المغامرة بالتطوع

ووجهت اليه مارجريت الدعوة للحضور فى نهاية الاســـــبوع القادم باسمها واسم أخيها فأظهر سرورا عظيما وهتف :

ـ سيسعدنى جدا أن أحضر ان استطعت . . . ولكن اظننى أستطيع . . . أوه لابد لى من الحضور بأى شكل !

ووصلا الى مدخل المعسكر قبل الظهر بعشر دقائق ، فشـــد على يدها باسما ، وخيل اليها ان وجه هذا الامريكى الشاب يمثل كل

جديد ناضر فى الحياة . واخذت تبتسم وتلوح له بيديها قبل ان تنطلق بالسيارة ويغيب عن ناظريها

◘

وتمخض ذلك الاسبوع عن امور مثيرة ، لا بالنسبة للقارة الاوروبية فحسب ، بل وأيضا بالنسبة لهاى ستاو . ففى يوم الاربعاء وقع حادث طفيف لبومى اذ تعثر بنتوء فى الارض فسقط وهيض ذراعه ولم يذهب الى الفراش كما نصحته أمه ، بل توجه الى المستشفى المحلى فى المساء ، واستشار طبيبا من أصدقائه فقيل له انه سيحتاج الى علاج بالتدليك مدة من الزمن

وفى وقت متأخر من مساء الجمعة بعد موعد العشاء وصل كارول، ولم يكن أرسل فى خلال الاسبوع سطرا واحدا فلم تدر مارجريت وبومى فى أى وقت سيكون حضوره . وكان الاثنان فى قاعة الاستقبال وبومى يبحث عن اسطوانة من اسطوانات الحاكى يريد ان يسمعها أما مارجريت فكانت تمر بأصابعها فى كسل فوق المعزف واذا بالباب يفتح ، واذا كارول يندفع نحوهما متخطيا الساقى كوكسون بشبابه وحيويته الفياضة وتحت ذراعه صحف المساء :

ــ الانباء الليلة هائلة . فقد اخذ رجالنا الوفا من الاسرى ، واستولوا على سان ميهيل بأسرها !

وشد على يد مارجريت شدا قويا نقل اليها تيارا من حماسته ، كأنما أزيح الستار فأبصرت أشياء لم ترها عينها من قبل . ثم فطن الى أن ذراع بومى معلقة فى ضمادة ، فأبدى قلقه ، ولكن بومى طمأنه الى ان ذلك الرض لن يحول دون جولتهما غدا صباحا فى أرجاء الحدائق . فقال كارول :

ــ هذا جميل لانه قد لاتسنح لى فرصة أخرى لمشاهدتها . اذ اننا نتوقع صدور الاوامر الينا بالذهاب الى الميدان فى اية لحظة فنحن الآن لا نصنع شيئا فى المعسكرات سوى انتظار الاوامر . ولذا سمحوا لى بهذه الاجازة بسهولة

ودعاه بومى الى قاعة المائدة ليتناول كأسا من الشراب معهما . وبعد تناول تلك الكأس ، ذهب بومى كعادته كل ليلة للتفتيش الاخير على الحديقة الشتوية ، وبقيت مارجريت مع كارول وحدهما .

فقالت له :

ـ هذا غريب . انني اشعر حقيقة أني أعرفك منذ سنوات

ـ حقا ؟ وهذا بالضبط ما أشعر به نحوك ونحو بومى وهذا البيت وكل ما هو انجليزى . وبهذه المناسبة اتظنينه يستاء اذا ناديته باسم بومى ؟

ـ أنا واثقة انه لن يستاء من ذلك. وتستطيع أيضا أن تناديني مارجريت . وسأناديك باى اسم تشاء

ـ اسمى الاول انتونى . ولكنى لا أحبه كثيرا . وافضل ان أنادى باسم كارول بالطريقة التى تنطقينها أنت !

فابتسمت وقالت :

ـ وهو كذلك . ليكن كارول اذن

ـ فلنسرع ونوثق المعرفة بيننا ٠ فانى أشعر أن العالم يدور من حولنا بسرعة فائقة ، وانه ينبغى ان اجرى بأقصى سرعتى لالاحقها

ـ اننا على كل حال سنستفيد فائدة كاملة من عطلتك . واذا كان بومى سيستأثر بك فى الصباح ، ففى استطاعتنا على كل حال ان نذهب بعد الظهر ان شئت بنزهة فى السيارة الى مكان ما

ـ لشد ما أحب هذا !

ـ أو نتسلق تل ستاو

ـ وانى لأحب هذا ايضا !

ـ واذا تغدينا فى ساعة مبكرة فقد يتسع الوقت للامرين معا !

ـ اذن يجب ان يتسع الوقت للامرين معا !

ـ وفى المساء اريدك ان تعزف . فسوف لا يأتى احد لتناول العشاء . وها نحن أولاء قد شغلنا لك وقتك كله

ـ انى سعيد بهذا جدا . بل انى مستعد أن أعزف لك الآن يا مارجريت ان أحببت ذلك ٠٠

ـ نعم . ارجوك

وذهبت معه الى قاعة الاستقبال حيث شرع على الفور فى العزف فعزف على التوالى مقطوعات كثيرة من شوبان ورافل وشومان وبتهوفن . وبعد ان انتهى من عزف آخر مقطوعة قالت له :

ـ الحقيقة انه يجب ان تحترف العزف !

ـ كنت مزمعا ان احترفه لولا قيام الحرب

وفى هذه اللحظة عاد بومى فاقترح عليهما تناول كأس أخرى . وحان منتصف الليل قبل ان يذهب ثلاثتهم الى مخادعهم . وكان آخر ما قاله بوسى لاخته :

ـ انها لجريمة ان يرسلوا فتى كهذا الفتى الى خط النار وهو فنان موهوب . وأن يتركوا الوفا من الخاملين والعاطلين من المواهب فى وظائف شبه مدنية لا خطر فيها على الاطلاق . انها جريمة لا تغتفر !

▱

واستأثر بومى بكارول فى الصباح. ولكن مارجريت كانت قد أعدت العدة لغداء مبكر ، وبعد الغداء مباشرة ، فى الساعة الثانية بعد الظهر، كانت سيارتها الصغيرة تجوس بها بين التلال . وكان كارول لا يكف عن ابداء اعجابه بالمناظر المختلفة فتشعر لرنة ذلك الاعجاب بصدى فى نفسها كأن اعجابه موجه اليها شخصيا . ثم أظهر دهشته لاتقانها قيادة السيارة هذا الاتقان الفائق ، ثم استطرد قائلا :

ـ ولكن لا عجب فى هذا لأن اسرتك تعتبر من أوائل القائمين بصناعة السيارات فى العالم . اليس كذلك ؟

ـ انا لا استطيع ان ادعى هذا . وكل ما هناك ان أبى كان دائما على استعداد لاحتضان المشروعات الجديدة . فلما مات فجأة وظفت أمى مالها فى تلك الصناعة . وبعد ذلك انضم الينا بينج .. ولكننا لم نخترع شيئا بأنفسنا

ـ أعتقد ان معكم فى المشروع شخصا اسمه لوفل أيضا ؟

ـ نعم وهذا هو المخترع

ـ اذن فكل منكما كان سببا فى ثراء الاخر ؟

ـ لا اعتقد ان هذا هو الوضع الصحيح للمسألة . فالواقع اننا اشترينا منه اختراعه لقاء مبلغ صغير . ثم ظللنا سنوات كثيرة نخسر فى انتاج السيارة الجديدة . ولم يبدأ الكسب الا قبل بداية الحرب مباشرة . وعندئذ بدأنا نفكر فى ترتيب معاش مجز للمخترع واذا به يموت فجأة

ـ هل كان مسنا ؟

ـ بل كان شابا . أو على الاقل هكذا يبدو لى أنا . لأنه مات فى الثانية والاربعين

ـ ولكنكم اشركتموه فى اسم السيارة على كل حال !

ـ نعم لقد سعدت . . بل سعدنا كلنا بذلك . واظن ان هذا الاسم أبهجه اكثر من المال . فقد كانت حياته مأساة

ـ كنت تعرفينه جيدا بالطبع ؟

ـ نعم

وتناولا الشاى فى شلتنهام ، ثم عادا عن طريق تل ستاو . وهناك صعدا الى القمة معا على الاقدام ، وأخبرته بتاريخ البرج العجيب

وفى تلك الليلة تناولا عشاء متأخرا ، وظل بومى يتحدث بلا انقطاع عن الحدائق . وأدهش مارجريت ان ترى أمها تنزل الى قاعة الطعام قرب نهايته . وبدا عليها أنها تستظرف كارول بصورة واضحة . وكان الفتى شديد الهذب والاهتمام بها ، فتجاذب الاثنان حديثـا طويلا متشعبا . ولما ذكر موضعا معينا فى امريكا ابتسمت السـيدة العجوز وقالت :

ـ نعم لقد ذهب مستر فرينشـام والد مارجريت وبومى الى هناك مرة . فقد كان من كبار الرحالة . ولا أظن أن على وجه الارض قطرا لم يزره مستر فرينشام . فقد شملت أسفاره جنوب أفريقيا وامريكا والهند واستراليا وزيلندة الجديدة وسيبيريا . . .

وابتسمت مارجريت لحماسة أمها كلما ذكرت زوجهـا فى الايام الاخيرة . ويبدو انها نسيت كل شىء عنه ما عدا الاساطير التى نسجت حول شخصيته وأبهته ، فصار فى نظرها تلك الشخصية العجيبة التى تعرف كل شىء وكل انسان . انه بطلها الاسطورى

وابتهجت مارجريت لان امها احبت كارول . ولم يعد لديها شك فى ذلك عندما سمعتها تطلب منه أن يعزف لها شيئا بعد العشاء ، وأمرت ان يدفعوا مقعدها المتحرك الى جوار المعزف . فعزف كارول لها مقطوعتين من الفالس لشوبان ، فشكرته وصعدت الى فراشها واستمر هو يعزف الى ان وصلت صحف المساء . فأخذ يطـالعها بشغف لانها كانت تتضمن مزيدا من التفاصيل عن الانتصـارات الامريكية فى سان ميهيل . ولما تركهما بومى لزيارة الحديقةالشتوية

كعادته جلست بجواره على الاريكة فابتسم وقلب صفحات الاطلس الذى بين يديه والذى كان يراجع فيها خريطـة المعركة . وعلى خريطة تمثل الولايات المتحدة جعل يدلها على الطريق التى ستسلكها الى كاليفورنيا حين تأتى لزيارته . والتقى راساهما فوق الخريطة الكبيرة وعيناها تتابعان حركات أصابعه ، الى أن بدأت الوانها واسماء ولاياتها تتداخل وتهتز أمام عينيها . ولما وصلت سبابته الى سان فرانسيسكو اســتولى عليها صمت ، الى أن رفعت اليه عينيهــا وقالت :

ــ انك تفكر فى شىء ؟

ــ نعم وكذلك أنت

ــ لقد كنت افكر يا كارول فى هذه الحرب . ويدهشنى أن رجالا من كاليفورنيا وتكساس ولويزيانا يقطعون آلاف الاميال ليحاربوا فى فرنسا . ان هذا يبدو نوعا من المعجزة والآن فيم كنت تفكر أنت ؟

ــ لم اكن أفكر فى شىء من هذا اطلاقا

ــ فيم اذن ؟

ــ الن أحنقك ان اكون صريحا ؟

ــ كلا بالطبع

فاجابها بهدوء وهو يبتعد براسه عن راسها :

ــ كنت اتساءل لماذا لم تتزوجى قط

وشعرت باعياء غريب يستولى عليها ويسرى فى أطرافها ، حتى انها اتكأت على وسائد الاريكة ، وهمست بقولها :

ــ هذا سؤال من الصعب الاجابة عنه

ــ انه ليس سؤالا . ولست اريد عنه جوابا . وانما هو الموضوع الذى كنت افكر فيه واقلبه فى راسى

وابتسمت للهجة الجد التى يتكلم بها

ــ ربما أخبرتك بهذا كله يوما ما

ــ ولكنى لم اطالبك بالاجابة يا مارجريت

ــ ولكن هب انى احب أن أفضى بها اليك ؟

وقطع عليهما الحديث دخول بومى

وكان اليوم التالى رطبا بعض الشىء يكتنفه ضباب خفيف ولكنها

خرجت به فى الصباح ، فتنقلا بالسيارة مخترقين شلتنهـــام الى تويكسبيورى . وتناولا الغداء هناك بعد ان شاهدا معالم المدينـة العتيقة ثم اتجها الى بريدون . وبدا لهما تل بريدون وسط الضباب وكأنه جبل شاهق . ثم اغراهما المنظر بالصعود الى القمة فتركا السيارة وبدءا فى التسلق . وقالت له :

ـ هذه هى المره الاولى التى أتسلق فيها هذا التل

ـ هذا جميل . فكلما قلت لى هذه أول مرة ازور فيها هذا الموضع منذ كذا وكذا من السنين اشعر بالسخط لانه يوحى بانك عجوز

ـ ولكنى عجوز فعلا !

ـ لست عجوزا ! انك فى مثل سنى . . فيما يتعلق بكل اساسيات الحياه

فابتسمت وقالت له :

ولكنى اعلم انى عجوز . حتى وان كنت لا تعلم هذا . فعندما كنت فى سنك كنت استطيع ان أتسلق هذا الجبل من غير توقف . أما الان فانظر كيف ألهث كأنى آلة بخارية !

ـ لابد انك كنت رائعة فى تلك السن . ولكنك أشد روعة فى الوقت الحاضر . وما أكثر الفتيات الرياضيات فى سن العشرين . ولكنى لم أقابل فتاة تضاهيك يا مارجريت

ـ انك تجاملنى مجاملة مسرفة !

ـ بل انى أعنيها بحذافيرها يا مارجريت ، فانا بكل امانة لا استطيع أن اتخيل فتاة فى العشرين تصارعك فى سحرك وفتنتك

ـ هذا غير معقول . فانا استطيع ان أعطيك اسماء عشر فتيات على الاقل من بين أصدقائى . وان أردت الدليل سادعو بعضـا منهن للغداء غدا

ـ أرجـوك الا تفعلى ! لانى ساكرههن ، فانا فى الواقع لا احب الفتيات !

ـ حقـا ؟

ـ انا أفضل الرجال دائما . ولا اشعر بالارتياح مع الفتيـات لما فيهن من بلاهة وتفاهة اما انت . . فهادئة رزينة وتشـعريننى الطمأنينة الكاملة

ـ هذا لانى اكبر سنا

ـ كلا كلا من فضلك . وحتى لو كان الامر كذلك ، فالسن اذن هى احب شيء فى الدنيا . واظن هذا ايضا هو راى الاخرين

ـ الآخرين ؟ مثل من ؟

ـ بينج مثلا . فقد فطنت لنظراته اليك فى الاسبوع الماضى وكان واضحا جدا اعجابه بك

ـ هذا هراء يا كارول . فبينج ينظر هكذا الى كل امراة متى شرب كأسا من الشمبانيا او كأسين

ـ ليس الى كل امراة فى الاربعين على كل حال !

وقرب القمة توقفا عن الصعود ليستعيدا انفاسهما . وقد انقشع الضباب من فوقهما وتجمع من تحتهما ، فكان المنظر بديعا جدا . ونظرت مارجريت نحو التلال الاخرى البعيدة التى برزت قممهـا فوق الضباب وقالت له :

ـ الم تزل تتساءل لماذا لم أتزوج قط ؟

ـ لا تقولى لان بينج تزوج ليلى ؟

فضحكت وقالت له :

ـ ولكن هذا هو السبب فعلا . ومن العجيب انك أدركت ذلك من تلقاء نفسك ! ان المسألة كلها تبدو لى بعيدة عن التصديق الآن ولكن هذه هى الحقيقة على كل حال فقد مضى على وقت كنت مستعدة فيه أن ارتمى على عنق بينج عند أول اشارة منه

ـ هل كنت تحبينه ؟

ـ كنت اظن انى احبه . ولعلنى كنت احبه فعلا عندئذ . ولكن هذا كان منذ زمن طويل . كنت يومئذ فى الخامسة والعشرين . وكان بينج هو مدير المؤسسة ، فكنا نراه كثيرا بطبيعة الحال . واليه يرجع الفضل فى توطيد دعائم المصنع . ولولا جهوده الادارية والمالية الخارقة لكنا كلنا اليوم فقراء . ورغبت امى فى ان يتزوج احدانا . ولم يكن يعنيها من هى التى يتزوجهـا . فاختار ليلى لانها كانت جميلة جدا

ـ لابد ان وقع ذلك عليك كان قاسيا للغاية !

ـ هكذا كان شعورى عندئذ . ولكننى سعيدة الآن لانى لم أصبح

مسز بينج

ـ انه يبدو لى على ما يرام

ـ انه كذلك فعلا ، ولكنه يفرض دائما ارادته عليك لا تدرى كيف . وليلى لا تبالى بذلك . اما انا فتكوينى مختلف عن تكوينها

وشرعا يهبطان التل . فقالت له :

ـ انه لعجيب جدا ان افضى اليك بأسرارى على هذا النحو !

وامتلأت عيناها بالدموع وهى تضع يدها على ذراعه وتقول :

ـ كل شيء فيك ناضر جديد . وأنا كل شيء فى عتيق . وأظن ان هذا كان بداية المناقشة بيننا ...

وركبا السيارة عائدين عن طريق التلال . وكانت تتـــكلم طول الوقت تقريبا وتشجعه على القاء الاسئلة . ثم قالت له قرب الدار :

ـ من العجيب حقا أن أخبرك انت بما كان فى نفسى من تعلق ببينج فيما مضى . فما من أحد يعلم هذا ولا سيما بينج نفسه

ـ الم يحس بشيء ؟ الم يخمن ؟

ـ اطلاقا . وكان ذلك مصدر متعة لى

ـ لا أظن هذا . فمن الفاجع جدا أن الرجل الوحيد الذى أحببته فى حياتك لم يفطن الى تلك الحقيقة !

فضحكت عندئذ ضحكة عصبية وقالت :

ـ اراك تقفز الى النتائج بصورة رومانسية يا كارول . فمن الذى قال لك أن بينج هو الرجل الوحيد الذى أحببته فى حياتى ؟

واحست باضطرابه . فشعرت بصدى ذلك فى نفسها مزيجا من اللذة والخوف . وطاب لها أن تكاشـــفه بتلك الامور المطوية فى سريرتها ، فقالت :

ـ الواقع يا كارول انه سبق لى حب مثير للغاية وانا فى العشرين من عمرى مع الرجل الذى اخترع السيارة .. فيليب لوفل !

ـ رباه !

ـ لست ادرى ما الذى جعلك تصيح هكذا . فليس عجيبا قطعا أن تفتتن فتاة فى العشرين من عمرها بمخترع شاب جميل الصـــورة وقد جن كل منا بالاخر جنونا حقيقيا زهاء شهر من الزمن . حتى لقد ظننت أن هذا الحب هو الحب الاكبر فى حياتى ... وقـــد

تخليت عنه فيما أذكر لانى ضبطه يعانق ليلى ويغازلها
نعم هذه هي الحقيقة . وما أغبانى فى تلك الايام
ـ لا أصدق هذا !
ـ ولكنها الحقيقة . لقد كنت فتاة لا تطاق وانا فى تلك السن ، ولا تصلح لرجل يريد ان يوطد مستقبله . كنت اريد ان استأثر من وقته باكثر مما يجب . وكنت اغار لانه لا يهمل عمله لينصرف الى حبى وصحبتى . وأعتقد أنه أحس بالراحة فى اعماقه عندما تخليت عنـه
ـ ولكنك كنت تحبينه ؟
ـ بصورة لا توصف !
ـ وماذا عنه هو ؟ هل تزوج فتاة أخرى ؟
ـ كلا . فهو ليس من الطراز الذى خلق ليتزوج . ولكن بصيرتى يومئذ لم تسعفنى بهذا الاكتشاف . فعمله كان مقدما لديه على كل شيء . ولم يكن اهتمامه بالنساء الا شيئا ثانويا عنـــدما يكون لديه متسع من الوقت
ـ ان هذا يبدو فظيعا !
ـ كلا ! لقد كان لطيفا جدا مع الفتيات اللواتى كن يغازلنه على شرطه . وكانت غلطتى اننى أحببته حبا حقيقيا . وفيما بعد ، لما خمدت الجذوة صارت العلاقات بيننا ودية جدا . وكان من الفـاجع حقا أن يموت فى اللحظة التى بدأ فيها نجاح عمله
فجمع قبضتيه وحدق امامه بأسى وقال :
ـ هذا أمر فاجع ، نعم له ولك أيضا يا مارجريت !
ـ لقد افتقدته كثيرا بالطبع
ـ ولكن فى مجموع حياتك يا مارجريت بصرف النظر عن الفاجع فيها وغير الفاجع ، وبصرف النظر عن هذا الحب الاول ثم حبك لبينج ... الم تشعرى فى غضونها بسعادة على الاطلاق ؟
فأجابته وهى تضحك ضحكا هادئا عميقا كأنها تتحداه :
ـ بل حفلت حياتى باكداس فوق اكداس من السعادة . اؤكد لك هذا . أم ترانى أبدو نموذجا للتعاسة ؟
وكان الغسق قد خيم على الطريق والمراعى . والقمر قد توسط

السماء . والرياح قد اخذت تكتسح امامها الضباب وتطرده من الوديان ، فقال لها :

ـ كم اتمنى لو صعدنا تل ستاو مرة اخرى !

ـ فى استطاعتنا ذلك ان كنت تريد ذلك حقا

وتركا السيارة عند السفح وشرعا فى الصعود . ورنت على البعد اجراس كنيسة . فلما ارتفعا عن سطح الارض بدت لهما عن بعد انوار هاى ستاو . ولما رفعا راسيهما ، وجدا ضوء القمر ينعكس على البرج العتيق ، وكأنه منارة مرفوعة فى عرض اليم . وبعد ان وصلا الى القمة شرعا فى الهبوط من الناحية الاخرى ، وقالت :

ـ ان هذا الطريق سيفضى بنا الى الدار مباشرة . ولا وجـــه للقلق على السيارة لاننا نستطيع ان نرسل احد السائقين لاحضارها فيما بعد

وكانت كل كلمة وكل همسة تتردد لها اصداء بغير نهاية فى سكون الليل . فآثرا الصمت الى أن دخلا فى منطقة كثيرة الشجر فصاح فجأة :

ـ انظرى ، انظرى هناك !

ورات ضوء القمر يكشف عن جذع شجرة ميتة ملقى بحيث يسد طريقهما وكأنه شبح . ولكن المنظر لم يكن فيه ما يبعث الخوف لان كل شىء فى ضوء القمر وتحت تلك السماء الصافيـــة كان هادئا مأنوسا

واقتربا من الشجرة . وعندئذ هتفت هى :

ـ عجبا . انها الشجرة العتيقة التى حفرت انا وبومى الحروف الاولى من اسمينا عليها ونحن طفلان !

ـ ألم تكونى تدرين أنها فى هذا الموضع ؟

ـ ان بومى احدث تغييرات كثيرة ، وقطع كثيرا من الاشجار منذ سنوات . فظننته هذه الشجرة بين الشجر الذى قطع وبيع

ووقفا أمام الشجرة يفتشان عن مواقع تلك الحروف . فاكتشف كارول أولا الحروف الاولى من اسمها ثم حرفى ف.ل. فقالت له :

ـ أتقول ف.ل ؟ هذا فيليب لوفل . لقد نقش الحرفين بجوار حرفى اسمى ذات يوم عندما صعدنا الى هنا

ـ عندما كنت فى العشرين ؟

ـ نعم

ـ ثم نسيت كل ما يتعلق بالموضوع ؟

ـ كلا . ليس بالضبط . كل ما هنالك انى بحاجة الى ما يذكرنى بهذا الماضى . والواقع اننى اتذكره الان بكل وضوح . لقد حدث هذا ذات صباح يوم ماطر من أيام الصيف وقد لذنا بهذه الاشجار لنحتمى من المطر

ـ وهل كان هذا عندما كنت تحبينه ؟

ـ ربما ... او قبيل ذلك . فالانسان لا يعرف دائما متى يبدأ بالضبط فى حب شخص ما ..

ـ حقا ؟ اما انا فأعرف

ـ انت ؟

ونظرت اليه غير مصدقة . فأجابها :

ـ نعم . فقد عرفت اننى احبك فى الليلة الماضية عندما كنا ننظر معا فى اطلس الخرائط الملونة

ورات نور القمر ينعكس على عينيه . فلما فكرت فى جواب هبت الرياح الندية بين الشجر ، والقت تحت اقدامها بحفنة من الاوراق الجافة ... ان الامر كله يبدو غير معقول وسخيفا على نحو ما . ولكنه سخف ليس اشد من سخف القدر الذى ارسل اليها ... وها هى ذى تجد نفسها هادئة هدوءا غريبا وهى تقول له بعد برهة صمت غير مشحون بالتوتر :

ـ يا كارول ... انك لا يمكن أن تعنى ما تقول

ـ بل اعنيه

ـ اتمنى على كل حال الا يكون ما قلته صحيحا . اتمنى أن تكون مندفعا مخدوعا

ـ بل انى واثق يا مارجريت من انى أحبك أكثر مما احببت اى انسان او اى شىء منذ ولدت !

ـ أوه .. انى آسفة ... آسفة جدا

ـ لماذا ؟

فهزت راسها وقالت :

ـ كلا . كلا ... لا ينبغي ان نتكلم فى هذا الموضوع وهيا بنـــا تسرع بالعودة الى البيت !

واجتازا المراعى ذات اللون الفضى التى تغمرها أشعة القمر ، ثم النهر ، ثم حدائق الزهور التى بدت كأنها تستحم في الاشعة الفضية ولم يتبادلا كلمة واحدة الا عندما كانت تشير بين الحين والحين الى هذه الشجرة أو تلك ، أو الى مجموعة من الزهور تعترض طريقهما كأن تقول :

ـ هذا الكريزانتيم قد نجحت زراعته جدا هذه السنة .. وهـذه البلوطات القرمزية التى تراها هناك تبدو متوهجة فى ضوء القمر .. أنا لا استطيع أن اتذكر اسم هذه الزهور الزرقاء الجميلة ، ولكن بومى يستطيع ان يحدثك عنها طبعا ..

والحقيقة انها كانت تبذل جهدا كجهد اليائس فى تجاهل ما حدث بينهما من حديث ومن مكاشفة تجاهلا تاما . وأخيرا عندما اقتربا من الدار التفتت نحوه وقالت :

ـ لا تظن يا كارول أننى تأذيت من كلامك على الاطلاق .. لاتجعل هذا يتبادر الى ذهنك .. ولكننا .. يجب ان نبقى أصدقاء على الدوام .. هل فهمت ما اعنى ؟

ورحل كارول تلك الليلة بعد العشاء مباشرة لانه يجب ان يصل الى المعسكر فى منتصف الليل . وكان هناك قطار مناسب له يغادر شلتنهام فى منتصف العاشرة فتولى السائق روجرز توصـــيله الى المحطة

الفصل العاشر

معركة العواطف

مر اسبوع باكمله قبل أن تصلها انباء منه . وكان ذلك الاسبوع حافلا بالاحداث العظيمة فى العالم كله . ففيه أنهارت بلغاريا وسقطت الناصرة فى ايدى الجيوش البريطانية وهزم اللنبى الاتراك هزيمة ساحقة

وفى يوم الاحد وصلت برقية منه تقول انه سيأتى فى المساء وكانت مارجريت تتحدث الى أمها فقدمتها اليها بعد أن قرأتها بنفسها ، فأظهرت السيدة العجوز اغتباطا شديدا بنبأ حضور هذا الشاب اللطيف ، وقالت أنها ستنزل فى وقت العشاء لانها تحب أن ترى هذا الشاب :

ــ انه من الطراز الذى كان أبوك خريا أن يحبه كثيرا !

ولكن مارجريت عجبت فى نفسها لماذا يجشم نفسه السفر ثلاثين ميلا لمجرد الزيارة والعودة فى نفس اليوم . وحدثتها نفسها انه تلقى الامر بالرحيل الى الميدان ، وان الدافع له الى الحضور هو توديعها . واعترضت صدرها غصة من غصص الخوف . الخوف من رؤياه والخوف من توديعه . فان ماكان بينهما من حديث ومكاشفة بين أشجار البلوط على تل ستاو ، قد جعل الامور بينهما تبدو لها حرجة بعض الشىء

وكان وصوله قبل الوقت الذى توقعته بمدة طويلة . وكان أطفال ليلى قد جاءوا بعد الظهر فظلوا يتوسلون اليها أن تسمح لهم بلعبة الاستخفاء فى الحديقة . وبين صيحاتهم :

ــ من فضلك ياخالة مارجريت !

اقبل كارول يهبط السلم بسرعة . وعلى الفور سكت الصياح

وجعل الاطفال جميعا ينظرون الى هذا الغريب ذى السحنة الصبيانية الذى يرتدى كسوة عسكرية غير مألوفة لهم ، ويشد على يد الخالة مارجريت بحرارة ويقول لها وهو يلهث :

ــ أعلم أنى جئت مبكرا جدا ولكنى استعرت دراجة بخارية حتى لا انتظر القطار . وارجو الا اكون قد سببت ازعاجا !

ــ كلا بالطبع

وكانت تشعر بشىء من التوتر العصبى ، وتتساءل هل يشعر هو ايضا بذلك التغير الدقيق فى العلاقات بينهما . واستطردت بعد برهة :

ــ انك تبدو فى أحسن صحة !

ــ وكذلك انت . والانباء التى فى الصحف أليست رائعة ؟

ــ الى حد أن الانسان لا يكاد يصدقها . واخشى انك ستصاب بشىء من خيبة الامل لان بومى ليس هنا . اذ اضطر للسفر مع بينج لتسوية بعض مسائل تتعلق بالاعمال

ــ لا حيلة فى هذا اذن . وانت هنا على كل حال . اليس كذلك ؟

ــ والآن اسمح لى أن أقدم لك أبناء أختى . بيتر وميكى وجون وبريان . بترتيب أعمارهم طبعا . وهذا يا أطفال مستر كارول القادم من أمريكا

وسرها أن تراهم على الفور يستجيبون لسحر شخصيته ، فالتفوا حوله يفحصون كسوته العسكرية فى لهفة ممزوجة بالخجل ، الى أن قال بيتر وهو أكثرهم جراة واكبرهم سنا :

ــ أبى يقول انكم معشر الامريكيين دخلتم الحرب متأخرين جدا

وضحك كارول واخذ يداعبهم ويناقشهم ، فلم تمض دقائق الا وهو فى نظرهم بطل . وعندئذ سمحت لهم مارجريت أن يجروا ويلعبوا فى الحدائق

وقال كارول اذ ذاك :

ــ هؤلاء أطفال ليلى فيما أعتقد

ــ نعم وهناك طفل رضيع أيضا

ــ مجموعة لطيفة . ما أسعد ليلى وبينج بهم

ـ بينج يعبدهم وهم يعبدونه طبعا . ومن المؤسف أنه يضطر للابتعاد عن البيت كثيرا من الاحيان

وظلا يتجاذبان الحديث وهما يسيران فى الحدائق ويلتقيان بين حين وآخر بأحد الاطفال مختفيا عن اعين اخوته . وبدات تسترد سجيتها فاحست بسرور لصحبته يغمرها بالدفء . فقد خامرتها الشكوك اثناء الاسبوع ، اما الآن فكأنما حدثت معجزة بدون هذه الشكوك ، وايقنت انه من الممكن بعد الذى حدث بينهما أن يكونا صديقين . وقال كارول فجأة :

ـ اظنك تدركين لماذا جئت ؟

ـ لكى تودعنا ؟

ـ نعم . فسوف نرحل غدا

ـ الى فرنسا ؟

ـ نعم

ـ هل تظن أنك ... ستشترك ... فى القتال ... سريعا ؟

ـ جائز جدا . فلا احد يدرى ماذا سيحدث !

ـ اظنك مستثار الاعصاب ؟

ـ بصورة هائلة

ـ بومى سيحزن لانه لم يرك قبل أن ترحل

ـ ليس لهذا أهمية حقيقية . فسوف اراه مرات كثيرة فى المستقبل على ما اتمنى

ـ نعم . هذا طبيعى

ـ وكذلك انت ؟

ـ طبعا ... الى متى ستبقى هذا المساء ؟

ـ المفروض اننى سأعود قبل منتصف الليل . وطريق العودة لا يستغرق بالدراجة البخارية ساعة

ـ عظيم . اذن تستطيع أن تبقى للعشاء وتعزف على البيانو بعد ذلك

وكان رائعا جدا أن يستطيع كلاهما الكلام بصورة عادية ، كأنما حادثة أشجار البلوط لم تقع اطلاقا . فهاهما ذان كأى صديقين قديمين حميمين . وعندما أقبل الاطفال تحدوهم المربية للتحية

قبل الرحيل ، شعرت بفخر عظيم لما رأته يصافح بيتر وميكى وبريان ويقبل جون . وكاد فرحها به يعجزها عن الكلام

وبعد ذلك دخلا الى البيت لتناول الشاى . وكانت النار قد اشعلت فى مدفأة حجرة الطعام ، فجلسا فى مقعدين وثيرين على جانبى المدفأة واستمرا فى حديث لا ينقطع . وقالت مارجريت :

ــ ستنزل أمى للعشاء كى تراك خصيصا

ــ حقا ؟ إنى أقدر هذه المجاملة كل التقدير ، فهى سيدة رائعة !

ــ لشد ماتحب أن تسمع هذا منك

ــ حقا ؟ اذن سأقول لها ذلك متى سنحت لى فرصة . كم عمرها ؟

ــ خمس وسبعون سنة

ــ قال لى بومى أن بصرها وسمعها فى احسن حال

ــ نعم . فهى تستطيع أن تقوم بكل شىء فيما عدا المشى . وقد عجزت عن المشى منذ اكثر من ثلاثين سنة

ــ ياله من عمر مديد ! وكيف حدث ذلك أصلا ؟ أهو نتيجة حادث ؟

ــ نعم . نتيجة نوع من الحوادث

ــ ومع هذا يعتقد الناظر اليها الآن أنها نعمت بأسعد حياة فى العالم !

ــ لعلها تعتقد أنها سعدت فى حياتها . وهذا الطف شعور يحس به الانسان حين يكون فى الخامسة والسبعين

وتجمعت ظلمة الغسق حولهما وهو جالس أمامها مشبوك اليدين بين ركبتيه ، ووهج النار ينعكس على وجهه فيبدو حديث السن ، يتدفق عافية وقوة . وظلا يثرثران بلا هدف الى أن صار من الضرورى أن تتركه لتساعد أمها على ارتداء ثيابها تأهبا للعشاء

وكان العشاء نفسه ناجحا جدا ونزلت السيدة العجوز فى ثيابها الحريرية السوداء ذات الحفيف ودفعوا مقعدها الى مكان قريب من النار بجوار كارول . وظل الاثنان طوال المدة التى استغرقها الطعام يتحدثان فى مودة ظاهرة تكاد تصل الى تبادل الغزل ، وطلبت مارجريت من الساقى كوكسون أن يأتى بزجاجة من أفخر انواع

الشمبانيا . وشرب كل واحد منهم نخب الآخرين . وضحكوا جميعا من قلوبهم . وبعد العشاء بدأت مسز فرينشام تهوم للنوم ، فدعى كوكسون كي يصعد بها الى حجرتها . ووضع كارول يده في يدها المتغضنة وقال لها :

ــ أتعشم أن التقى بك ثانية ياسيدتي . فأنا ذاهب الى فرنسا غدا

ــ فرنسا ؟ لقد ذهبت الى فرنسا ذات مرة ... أوه ؟ اتعنى انك ذاهب الى الحرب ؟

ــ نعم الى الحرب

ــ اذاهب أنت لمقاتلة الالمان ؟

ــ ان وقع نظري على احد منهم

ــ تمنياتي الطيبة ياعزيزي ... يجب أن تأتي ثانية . فيما بعد ... حفلة كبيرة ... بومي وبينج ... وداعا . يجب أن أذهب الى فراشي !

وبدأ كوكسون يدفع المقعد . فقالت مارجريت :

ــ عن اذنك يا كارول . ساصعد وأشرف على راحتها

وكانت مارجريت تبتسم عندما عادت لتقول له :

ــ لقد تركتها غارقة في النوم . خادمتي هي التي تغير لها ثيابها وترقدها في الفراش ، ولكني أحب دائما أن أكون موجودة . . الخامسة والسبعون ! ياله من عمر ! وهي مع هذا في صحة جيدة جدا بالنسبة لسنها ...

واقبل كوكسون يحمل اقداح القهوة وشرابا معتقا من انتاج سنة ١٨٣٤ ، لان مارجريت كانت مصممة على أن تحتفل احتفالا خاصا بليلة الوداع هذه . وانتقلا الى حجرة الاستقبال حيث كانت النيران تتراقص في المدفأة فقال :

ــ لا تشعلي الانوار لاني أحب العزف على ضوء النار . واتجه على الفور الى المعزف ، وشرع يؤدي الحانا صغيرة هينة لم تكن قد سمعتها من قبل . وكان عزفه جميلا كالعادة . ولكنه في هذه المرة كان اجمل وارق . ولعل هذا الجمال كان في اذنيها أكثر مما كان في عزفه ... وجلست مارجريت بجانب المدفأة تصغي وتصغي الى أن

امتلأت الحجرة بأطياف السحر المتراقصة أمام عينيها ... وكانت طوال الوقت تتخيله راقدا فى الخنادق وقد جرحت يداه ، تلكما اليدان اللتان يتمثل فيهما كل شبابه ونضرته . وشعرت على الفور بعجزها وضعف حيلتها ازاء هذه الصورة المروعة • فهاهوذا ذاهب الى مصيره المجهول . وهاهى ذى عاجزة عن منعه

وابتسمت نصف ابتسامة عندما انتهى من العزف ، واقبل نحوها وركع أمام النار لتدفئة يديه . فسألته :

ــ هل أنت مقرور ؟

ــ نعم . جدا ... ويجب أن اقول لك شيئا سواء احببت ذلك أم لا . لقد ظننت فى البداية انى مستطيع أن امضى من غير أن أصارحك به . ولكنى أرى الان انى لا أستطيع ذلك . لان الكتمان سيؤلمنى الما يفوق طاقة احتمالى ... يامارجـــريت . يجب أن تعلمى . لانى أريدك أن تعرفى بالضبط ماذا أعنى ... انى أحبـك يامارجريت . وسواء كان هذا سخيفا فى نظرك أو غير سخيف ، فانا أعلم علم اليقين انى لن أحب احدا سواك

وتلاشت جميع خططها وقراراتها فى هذه اللحظة وتركتها فريسة لرغبتها وحدها . وأحست بشلل يصيبه ارادتها حتى عجزت عن القيام بأى شىء ماعدا شيئا واحدا ، هو الانحناء بوجهها الى مستوى وجهه وهو راكع على الارض

وبعد قبلتهما الاولى المحرقة غمغم يقول لها :

ــ لا حيلة لى فى هذا ...

فأجابته بمثل همسه :

ــ ولا انا ياكارول ياحبيبى ...

وخيل اليها عندئذ ان سحب الحرب الداكنة اخذت تدنو من الارض فجأة حتى لامستها . وعلمت أخيرا علم اليقين انها تحبه

ان الحرب هى التى جمعتهما وهو على حافة الحياة وهى فى قرار الحياة بكل غناه وعنف انفعاله . والحرب ايضا هى التى ترشك أن تفرق بينهما ...

وقال لها بصوت أجش :

ــ عندما أعود ، فيما بعد ... أريد أن أتزوجك

ــ تتزوجنى انا ؟

ولكنها علمت عندئذ انها تريد أن تتزوجه اكثر ممــــا أرادت ان تتزوج اى انسان آخر فى حياتها . بل اكثر مما تمنت اى شيء فى عمرها كله ...

ــ ولكن ياكارول ... انك لا يمكن أن تعنى هذا !

ــ ولم لا

نعم ولم لا ؟ هناك عشرات من الاسباب . انها واثقة من هذا . ولذا قالت له بعد برهة صمت :

ــ ياكارول . لا ينبغى أن نكون سخيفين فى تفكيرنا . تذكــر ياكارول كم تبلغ سنى !

ــ ان سنك لا اهمية لها عندى مطلقا . انا لا افكر فيها قط . ان كل ما أفكر فيه هو أنت . أنت فقط . شخصك . وأنا أعنى هذا بحذافيره . وما كان ليغير من رايى ان تكون سنك مائة سنة !

فقالت باسمة :

ــ ان الموقف كان يبدو أقل سوءا لو كانت سنى مائة سنة . لانك فى هذه الحالة ستكون فى الثمانين . أما الآن فيجب أن تدرك وجــه الاستحالة ياكارول . ان الناس سيظنوننا مجانين

ــ اتقولين مجانين ؟ وهل يمكن مهما حاولنا ان نكون اشد جنونا من العالم كما يبدو فى لحظته الراهنة ؟

ــ ولكننا ينبغى الا نكون مجانين على الاطلاق !

ــ ولم لا . انا لا أبالى يامارجريت . ولم أبال فى يوم من الايام بما يظنه الناس بى . ولا أعتقد أنك فى قرارة نفسك تبالين براى الناس فيك ايضا

فهزت راسها وقالت :

ــ بل انى أبالى ياكارول . وستبالى انت ايضا عندما تبلغ من العمر مابلغت انا

ــ ربما لم اعش حتى أكون فى مثل سنك

وكان هذا صحيحا . ولذا ارتجفت شفتاها وهى تجيبه :

ــ فكر قليلا ياكارول ... انك عندما ... او اذا ... صرت فى سنى ... سأكون انا ... فى الستين ! الستين ياكارول ! الست

تدرك مبلغ ماقى ذلك من الفظاعة ؟ لن أبالى أن يسخر الناس منى . ولكن الناس سيسخرون منك أيضا . وهذا مالا أعتقــد أنى احتمله

وكانت عيناه تومضان الآن بمثل النار التى تلظت بها شفتاه منذ قليل . وكان هذا كله عجيبا . حتى انها لم تكد تصدق انه واقع امام عينيها . لقد طلب يدها وهاهى ذى ترفضه ... وكل هذا غير معقول مثل تلك الحرب التى تزمع أن تأخذه منها لتلقى به بعيدا

وسألها بصوت حاد :

ـ هل هذا قـرارك الاخير ؟ اواثقــة انت انك لا تريدين أن تتزوجينى ؟

ـ انا واثقة أنى لا أستطيع ذلك ياكارول

ـ حتى ولو كنت مهتمة بى ... قليلا ؟

ـ ومن قال لك أنى مهتمة بك ؟

وشعرت أن السؤال سخيف . فقد قرأ سخافته فى وجهها وقال وهو يقبض على ذراعيها ويحدق فى عينيها :

ـ بربك يامارجريت ...

وظل كل منهما يحدق فى عينى الآخر من غير أن يتكلم . وقـد لفهما غموض غريب هائل ، اشترك فى خلقه الحب والحرب والشباب والسن . لغز غامض لاتستطيع الكلمات أن تجلو غياهبه ...

وهتف أخيرا هامسا :

ـ مارجريت ...

وابتسمت وهى تطل من فوقه وشعرت فجأة بفيض من القوة . ولكنها قوة هادئة مطمئنة لم يستطع اى حب آخر أن يمنحها اياها . قوة ليس فيها شىء من خداع أوهام الشباب . بل انها على العكس شعرت بعمرها كما لم تشعر به من قبل ... وكأن السماوات وشاح تتدثر به فيمنحها الامن والراحة

واخذت تتخلل شعره بأصابعها وتتحدث اليه بحنان دافــق وهدوء كامل

ـ كارول ياحبيبى . ينبغى الا نكون سخفاء مضحكين . ولقد كنا سخيفين فعلا ... ولا سيما أنا ... ولا اعتقد انى اســتطيع ان

أتزوج أى انسان . هذه حقيقة واقعة . فهناك يومى وهو كما ترى أعزب متمسك بعزوبته لا أمل فى اقلاعه عنها . وسيشعر بالضياع التام لو اننى تخليت عنه وفارقته ... آوه ! لا يمكنني ان احتمل التفكير فى هذا . وهناك أيضا أمى ... فلابد أن يرعى شـــئونها انسان ... وفضلا عن هذا لاشك فى أنك ستعثر على فتاة فى مثل سنك يوما ما . كلا ... لا تعترض ... ان الحب الاول قلما يدوم ... تذكر حبى الاول ... لقد خيل الى يومئذ انى ساموت غما . ولكن هأنذا الآن قد اوشكت أن انساه تماما !

ونهض واقفا وهو يضحك فتحطمت تعويذة السحر . واشعل سيجارة ، وقال لها وهو يذرع الحجرة ذهابا وايابا :

ـ اما انا فقد آمنت فعلا بسبب حبى الاول

وبصورة ما فارقته حداثة سنه ورنت ضحكته الغريبة الجافة فى أذنيها رنين الرجولة الكاملة . فاحست انها مهما منحته فستكون مدينة له بذلك الشباب الغرير الذى جردته منه . كانت مستعدة ان تمنحه فى هذه اللحظة أى شىء على سبيل التعويض عن شـــبابه المسلوب . ولكنه لم يطلب شيئا . بل قال بعد لحظة صمت :

ـ يا الهى . انى اكاد لا أصدق انى وجدت الجراة على معاملتك على هذا النحو ... وانى لآسف جدا

ـ لا عليك . أعزف لى شيئا

ـ ان سمحت لى فلن اعزف شيئا . كل ما أصلح له الآن هـــو الصمت ، ولن أفلح فى أداء نغم مستقيم . وربما كان الافضل لى الآن ان انصرف

ـ نحن بعيد العشاء . وامامك فسحة من الوقت

ـ لا أريد أن أتعرض لطوارىء الطريق بسبب السرعة !

ـ تناول كأسا على الاقل قبل أن تذهب

ـ لا بأس بهذا . وشكرا لك

وذهبا الى حجرة الطعام فصبت له قدحا كبيرا من الويسكى . فقال لها وهو يتجرع كأسه دفعة واحدة :

ـ مع احسن التمنيات لمستقبلك

ـ ولك أيضا

ـ هل قلت أن بومى وبينج سيعودان غدا ؟
ـ نعم
ـ بلغيهما أطيب تمنياتى
ـ سأفعل
ـ انى اتركك فى رعايتهما
فضحكت وقالت :
ـ أحقا ؟
ـ نعم . ولاسيما فى رعاية بينج
ـ أنا ... أنا لا أدرى ماذا تعنى ؟
فقال وهو يضع كأسه :
ـ انى لم انس الطريقة التى كان ينظر بها اليك تلك الليلة ونحن على المائدة ... ولكن لا بأس . انه أهل لذلك ... أتسمحين لى أن آخذ هذا الثقاب لاشعل به مصابيحى ؟

فأومأت برأسها وتبعته الى البهو . وخيل اليها ان دهرا قد انقضى وهو يرتدى سترته الجلدية استعدادا لركوب الدراجة البخارية . وقالت له :
ـ ستكون الرحلة شديدة البرودة فى العراء

وأجابها بلا اكتراث :
ـ لست أبالى . أنا لا أبالى شيئا

ووقفت بجانبه أمام الباب ريثما أشعل المصابيح وأعد آلة الدراجة للعمل . فقال لها :
ـ أخشى أن تصابى ببرد

فأجابته فى أسى واجم :
ـ لست أبالى . أنا لا أبالى شيئا أيضا

فنظر اليها وضحك ثم تصافحا . ولم يكن هناك قمر . وانما هى السماء الزرقاء الداكنة الصافية الاديم الموشاة بالنجوم . وقال كارول :
ـ وداعا يامارجريت !
ـ وداعا ياكارول !

وكان هذا كل شيء . وبعد ذلك انفجر هدير الدراجة البخارية

يهتك هدوء الليل ثم طواه الظلام فوق دراجته • وظلت هى واقفة حيث كانت الى أن اختفى عن ناظريها آخر بصيص لانوار الدراجة . ثم انتظرت بعد ذلك ايضا لانه خيل اليها ان صدى هدير الدراجة يتردد بين التلال • فكان لابد لها أن تتريث الى أن يتلاشى هــذا الصدى . ثم عادت أدراجها الى الدار وهى تسعر باعياء شــديد يستولى على سائر اطرافها

□

وانقضت عشرة ايام بعد رحيل كارول من غير أن تسمع عنه شيئا او تصلها رسائل منه . ولم تكن تتوقع أن يكتب اليها . فلم يكن ثمة اتفاق بينهما على شيء من ذلك . ولكن فى اليوم الحادى عشر جاءتها رسالة منه يخبرها فيها أنه لم يشترك بعد فى قتال حقيقى، وان كان دوى المدافع يصل الى اذنيه . وأن جميع الجنود فى جميع الجيوش المتحالفة يعتقدون أن الحرب ستضع أوزارها قريبا . وأن صحته على خير مايرام . وأنه يستمتع بالحياة « على نحو ما » ... وكان هذا كل ماقى الرسالة لان نصف السطور على الاقل طمسته يد الرقيب الحربى

وعلى الفور كتبت اليه ردا عاديا وديا حافلا باللغط والثرثرة حشدت فيه جميع انباء الاسرة كما وردت على خاطرها :

ـ ... وقد أسف بومى أسفا شديدا لانه لم يتمكن من مقابلتك قبل ان تسافر . وقد طلب منى أن أبلغك أطيب تمنياته . هل هناك اى شيء تحتاج اليه أو اى شيء تحب ان نرسله اليك ؟ أن ذلك خليق ان يدخل السرور العظيم على انفسنا ... فنحن نشعر بالوحدة هنا كما هى العادة عند اقتراب الخريف • ولكن لدينا أعمالا كثيرة • وسيأتى بينج وليلى للعشاء فى الاسبوع القادم ... وهذا معناه مجهود اضافى للطاهية ولى ... وابن أختى بيتر الذى قابلته فى المرة الاخيرة عندما كنت فى زيارتنا دخل المدرسة ، ويبدو سعيدا جدا بذلك ... وأمى حالتها كما هى وقد طلبت منى ان أبلغك تحياتها ..

وقضت مارجريت طيلة بعد الظهر بعد ارسال ذلك الخطــاب فى مساعدة الطاهية بالمطبخ • وبعد الشاى ذهبت لتعد أمها لاستقبال

بينج . واستقباله يسرها دائما . وكان موعد العشاء فى الثامنة . وقبل الثامنة بربع ساعة ذهبت الى حجرتها لترتدى ثيابها . وبينما هى تمشط شعرها حملت اليها الخادمة خطابا وصل فى تلك اللحظة ، وعرفت خط كارول وقرات الاختام العسكرية على المظروف فارتجف قلبها وهى تمزق الغلاف • ولكن أول عبارة وقعت عليها عيناهـــا كانت : « أنا بخير وسلام »

فكان لرد الفعل اثر قوى حتى لقد كاد يغمى عليها فارتمت فوق الفراش مسلوبة القوة . وبعد قليل استطاعت أن تقرأ الرســـالة .

« عزيزتى مارجريت :

« هذه أول فرصة تسنح لى بالكتابة اليك منذ أيام ، وأنا بخير وسلام . ولكن الموضوع الذى ناقشناه فى مقابلتى الاخيرة لك لم يزل له تأثير قوى على نفسى ، ويسبب لى اضطرابا كثيرا . وقـــد خيل الى فى البداية أنى سأستطيع تناسيه . ولكنى لم أستطع . واشعر أن كل شىء هنا يتوقف على هذا الموضوع . وانى أعلم أنه من الاجحاف الشديد بك أن أقول لك هذا الآن . ولكنها الحقيقة . فليتك تستطيعين على الاقل ان تمنحينى ولو نصف وعد . فانه سيمنحنى أملا كافيا ، ويشعرنى أن الحياة ممكنة ... أعــلم انى أسأت عرض المسألة فى هذه السطور . ولكنى واثق أنك ستقدرين الظروف التى اكتب فيها . وقد كانت لديك دائما قدرة فائقـــة على الفهم والتقدير . وربما لم تتح لى بعد هذا فرصة للكتابة اليك مدة طويلة من الزمن ... »

وتلت ذلك سطور شطبها الرقيب فلم يترك الا الامضاء

وخيل اليها انها لم تفهم شيئا من القراءة الاولى . ولاسيما لان الرسالة كلها مكتوبة بحبر بنفسجى وبخط سريع مضطرب

واعادت تلاوة الرسالة . وقبل أن تتمها سمعت رنين الجرس فى الطابق الاسفل يدعو الطاعمين الى المائدة

اذن قد وصل بينج وليلى !

ووضعت الرسالة فى درج مكتبها الصغير واغلقته بالمفتاح ، ثم اسرعت تتم تصفيف شعرها

الفصل الحادى عشر

مهرجان النصر

وعلى مائدة العشاء بدا كل شيء مهتزا غامضا فى عينيها ، فصار بينج ذاسحنة بشعة ،وكان صوتهالمرتفع ،وضحكه المرتفع ،يسيطران على الحجرة . والى جواره جلس بومى بادى السعادة ولكنه متوتر الاعصاب شيئا ما ، ولذا لم يكن حديثه طلقا يسيرا كعادته ، وكانت أمها جالسة بجوار النار تحدق فى المائدة ، وعلى شفتيها ابتسامة ثابتة لا تتغير . وبين الحين والحين كان بينج يلتفت اليها فجأة ويسألها :

ـ اليس هذا رأيك أيضا يا أمى ؟

فقد كان ينادى حماته بهذا الاسم دائما ، وكانت عند سماع هذا السؤال تتصلب عضلاتها وملامحها كالقطة المتوجسة وتقول :

ـ نعم .. نعم يابينج .. انا متفقة معك فى الرأى جدا يا بينج

وكانت ليلى جالسة بجوار مارجريت ومجوهراتها الثمينة الكثيرة تتلألأ .لقد تخلى عنها جمالصباهاالان، لانبينج والاطفال استنزفوا حيويتها ونضارتها ، ومع هذا ظل بينج حنونا كريما على طريقته الخاصة . فهو لا ينفك يشترى لها الهدايا الباهظة الثمن . وكانت هديته الاخيرة لهاقلادة يزيد ثمنها على ألف جنيه ،كانت ليلى مزهوة بها ، تريها لكل انسان وتطرى رقة زوجها وطيبة قلبه

وفى نهاية الوجبة قدمت الاشربة المسكرة ، فأومأت الام كعادتها الى كوكسون كى يدفع مقعدها ، ولكن بومى قال :

ـ ابقى قليلا يا أماه !

وكان غريبا جدا أن يحدث منه هذا . وانتظر الى ان انصرف كوكسون ، ثم قال بعد أن صب لنفسه ولبينج كأسين من البورت

ـ الحقيقة ان لدى مسألة أريد أن أفاتحكم فيها جميعا !

وكان وجهه محتقنا ،وهو يرفع الكأس الىشفتيه ويشربها جرعة واحدة حتى الثمالة . وقالت الام بصوتها الخفيض :

ـ نعم يا بومى . . . نعم

فقال بصوت يكاد لا يسمع :

ـ كنت فى المدة الاخيرة افكر فى الزواج

وظهرت الدهشة على وجه بينج فمال الىالخلففى مقعده بحركة أحدثت صوتا مسموعا ، اما مارجريت فازداد احساسها بالهدوء وكأنها صخرة تضطرب من حولها الامواج من كل الجهات . وقال بينج :

ـ اتمزح يا بومى ؟

ـ كلا . كلا . بل انا جاد كل الجد . لقد كنت أفكر حقا فى هذا

وكان هذا آخر ماكانت تتوقع ان تسميه ،ولكنه فسرلها مالاحظته على اخيها فى المدة الاخيرة من الشرود ونوبات الضحك والمرحالمتقطعة لقد كان الرجل عاشقا . وبدا لها هذا فىأول الامر أدعى للضحك . ولكنها أحست وراء هذه الرغبة فى الضحك نوعا من القلق والشعور بالصدمة

ـ ولكنك يابومى يجب أن تحدثنا عنها . من هى أولا ؟

ـ لا اظنك تعرفينها يا اماه . اسمها مس بريذويت . وهى فى المستشفى العسكرى القريب من هنا

فصاح بينج :

ـ لا أظنك تعنى تلك الفتاة القصيرة البدينة التى تقوم بالتدليك فى المستشفى العسكرى ؟

ـ هى بعينها . وهذه هى المرأة التى سأتزوجها . . . وقد خطر لى أنه من الافضل ان اخبركم مجتمعين بهذا النبأ

وافاق بينج من ذهوله فصاح :

ـ وماذا تنتظر منى الآن ؟ ان اهنئك مثلا ؟

ـ هذا شىء مرجعه اليك

ـ ولكن الفتاة فى نحو العشرين فيما أظن ؟

ـ أعتقد أنها فى الرابعة والعشرين

ـ واى شيء هي فيما عدا انها مدلكة ؟ من أين اتت ؟ ما أسرتها ؟
ـ لا أدرى ما أسرتها ، وماهى اسرتك انت ؟

فجاء هذا السؤال اللاذع غريبا جدا على لسان بومى الذى لم يسمعه احد فى حياته كلها يقول كلمة مسيئة كهذه ، مما جعل بينج لا يكاد يصدق اذنيه ، وطغت دهشته على غضبه فقال :

ـ ماذا جرى لك ؟ يجب ان تدرك أن هذا الزواج غير مناسب

ـ يؤسفنى انه لا يسرك ، ولكنه سيتم وفى التاسع عشر من الشهر القادم يا بينج

ـ اتعنى أنك تقدمت اليها وقبلتك وان كل شيء قد اتفق عليه ؟
ـ هذا هو الواقع
ـ اذن انت وربى أحمق الحمقى !

فكاد الدم يتفجر من ملامح وجه بومى، ثم هز كتفيه هزة يسيرة وقال :

ـ شكرا لك يا بينج

ـ فكر يا رجل فى عمريكما ! وفى طبقتكما أيضا • فسوف تكون لهذا اهميته الكبيرة ! ان معرفتى بالفتاة سطحية جدا وليس عندى اى شيء ضدها ، ولكنى لا استطيع ان أتصورها فى مكانها المناسب فى هذه الدار ! ستجعل من نفسك ايها الرجل اضحوكة للمقاطعة كلها الرجل الذى تزوج مدلكته ! وهذا ليس بينه وبين الزواج من طاهيته الا خطوة واحدة ! الا تدرى ما الذى تريد ان تصنعه بنفسك ؟ أم انت مفتون بها حتى انك لم تعد تبالى ما تصنع ؟

وكانت مارجريت منذ أعلن بومى النبأ ثابتة فى مكانها ، تحاول جهدها ان تتغلب على دهشتها ، وكانت أكبر بواعث هذه الدهشة ان بومى لم يطلعها على سره من قبل ، وانه تقدم لخطبة الفتاة واتفق معها على الزواج من غير أن يصدر عنه تلميح • وآلمها ذلك ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تسأل ضميرها اى حق لها فى أن يفضى اليها من أسراره بأكثر مما تفضى اليه من أسرارها ؟ ولم تجد جوابا مقنعا عن سؤالها ، ولم يترك لها صوت بينج العالى فرصة للتفكير الهادىء، ولكنها وجدت نفسها تنهض وتدور حول المائدة حتى تصل الى مكان بومى . ووجدته يحملق فيها بدهشة يكاد يمازجها الخوف ، ثم

قالت له وهى تهش فى وجهه :

ـ دعنى يا بومى أكون أول من يتقدم اليك بالتهنئة · أنى أهنئك باخلاص قلبى

وتناولت يده وابقتها فى يديها برهة ، فوجـدتها باردة كالرخام فالتفتت نحو بينج وقالت له وهى تواجه وجهه الضخم ، وعينيه الزرقاوين القويتين :

ـ اعتقد يابينج أنك تجاوزت الحد كثيرا · فلبومى الحق الكامل فى ان يتزوج اية امراة يشاء . فلماذا تتدخل فى شأنه الخاص ؟

فضحك بينج ، وقال :

ـ أنا أعلم الناس يا عزيزتى مارجريت أنك أحصف من ان تقرى زواج بومى من هذه الفتاة . فلماذا تتظاهرين بغير ذلك ؟

ـ ليس من شأنى أن أقر أو أعترض ، وليس هذا من شـأنك أيضا . فلنا جميعا الحق فى الزواج ممن نريد ، كما كان لك هـذا الحق عندما تزوجت من ليلى

ـ اذن انت تؤيدينه ؟

ـ نعم تأييدا مطلقا . انى أؤيده ايا كانت الفتاة التى يتزوجها . ولا أدرى كيف جرؤت على ان تكون وقحا الى هذا الحد معه !

ـ لقد أعربت له عن رأيى الصريح يا مارجريت ، وهذا كل شىء وهأنتذى تبدين لى الآن رأيك الصريح فى، ولا اعتراض لى على هـذا

ـ انه لم يكن رأيا صريحا . بل انك كنت كعادتك تفرض ارادتك ولن نخضع أنا وبومى لارادة أحد يابينج ، وكلما أدركت ذلك سريعا كان ذلك أفضـل لك !

فهز كتفيه الضخمتين وابتسم قائلا :

ـ وهو كذلك . هذا رأيك انت . والآن ما هـو راى الآخـرين ؟ اليس لهم الحق أيضا فى أن يقولوا شيئا ؟ ما رايك أنت يا ليلى فى هذا كله ؟

ونظر الى زوجته التى أجابت وكأنها تلميذة تردد درسا محفوظا

ـ انى أوافقك يا بينج .وأعتقد انه من السخف اقدام بومى على الزواج من فتاة كهذه !

ـ وانت يا امى . ما رايك ؟

ولكن السيدة العجوز كانت قد استغرقت فى النعاس . وهكذا كان شأنها اذا حل موعد نومها مهما كانت المناقشة حامية ومثيرة . بل انها قد تنام فجأة وسط جملة من كلامها هى . فقال بومى :

ـ يحسن ان نجعل كوكسون يأخذها الى حجرتها

وكانت لحظات انتظار حضور كوكسون ثم دفعه المقعد كافية لتهدئة حدة التوتر . وتبينت مارجريت ذلك ، فقالت وهى تهم بالخروج :

ـ يجب أن أذهب لاطمئن على راحة أمى . طابت ليلتكم

وتركت الجميع يتمون احتساء أشربتهم ، وبعد أن فرغت من عمليات الاشراف المعتادة كل ليلة ، دخلت حجرتها ، وطالعت خطاب كارول مرة أخرى . وتبينت أن صور الرجال الثلاثة كارول وبينج وبومى تراود ذهنها ، وتجوب أنحاءه ، كأنهم نمور تذرع اقفاصها الحديدية . فقامت الى النافذة وفتحتها . وكان القمر قد صار بدرا ، والليل رطبا ساكنا

وفى نحو الساعة العاشرة طرق الباب بومى ودخل عليها متوهج الوجه بالدماء التى تكاد تطل من ملامحه .وفى عينيه بريق . وكان واضحا انه يعانى من التوتر العصبى ، ويتوق الى التفريج عن نفسه بالحديث معها ، ولم تكن هى أقل توترا منه . واشعل سيجارة وجلس بجانبها ، فقالت له :

ـ هل انصرف بينج وليلى ؟

ـ نعم

ـ أظنهما شعرا بوجوب الانصراف بعد الذى قلته لهما . ولكن كان ينبغى ان أوقف بينج عند حده . مع انى أكره هذه الاصطدامات

ـ لقد احسنت جدا بالوقوف الى جانبى يامارجريت

ـ هذا أقل ما أفعله بعد كل هذه السنوات التى قضيناها معا

ـ وهذا ما أخجلنى . فقد شعرت بعد اعلان النبأ امام الجميع انه كان من الواجب ان اخبرك انت أولا

ـ هذا شىء لاقيمة له . فلا تعذب نفسك بسببه . واعلم ان كل ما يهمنى هو سعادتك . ولا يعنينى ماهى الترتيبات التى ستتخذها للزواج فالمهم ان تكون موفقا . واعلم انى كثيرا ما سألت نفسى لماذا

لم تتزوج !

ــ وانا ايضا كثيرا ما سألت نفسي هذا السؤال نفسه بشأنك !

ــ انا يا بومي ؟ لو انني اردت ان اتزوج لتزوجت . وهــذا من الاسباب التي جعلتني اقف في صفك . والان حدثني عن بولين

وشعرت كأنها أم تشجع طفلها على الاعتراف بأسراره . فأفضى اليها بمعلومات قليلة بعد استدراج كثير . قال لها ان بولين فتــاة من لندن يتيمة الابوين . وان والدها كان مستخدما في شركة للتأمين وان الاسرة محترمة ، ولكنها ليست على مستوى اجتماعي بالطبع

ــ اني واثقة انها ظريفة والا لم جذبتك اليها !

ــ نعم هي ظريفة . وان كان هذا لا يبدو لكل انسان طبعا . لقد قال عنها بينج انها بدينة ولكني لا أظنها بدينة . وان كانت طبعا ليست في نحافة ليلى

ــ هل هي مغرمة بالموسيقى ؟

ــ اظن هذا

ــ وهل تحب الحدائق ؟ سيكون لطيفا جدا ان تجمعكما هــذه الهواية !

ــ اظنها تحب الحدائق ايضا

ــ اليست في الرابعة والعشرين كما قلت ؟

ــ بلى . وانا في الرابعة والاربعين . وهل لهذا اهمية ؟

ــ لا اظن . ما دام هناك تناسب بين الشخصين في كل شيء آخــر

ــ اتعنين هذا حقا يا مارجريت ؟

ــ اعتقد هذا

ــ هذا جميل . وأنت على حق . فما قيمة فارق الســنوات ، وخصوصا حينما يكون الرجل هو الاكبر سنا ؟

ــ هل اني أذهب الى ابعد من هذا يا بومي ؟ واعتقد ان هــــذا الفارق لا اهمية له حتى حينما تكون المرأة هي الاكبر سنا

ــ حقا ؟

ــ ولم لا ؟

ــ هل اذا كانت بولين في الرابعة والاربعين وأنا في الرابعة والعشرين ، الا يكون ذلك سخيفا ومضحكا ؟

ـ اتظن ذلك ؟

ـ الا ترين انت ذلك ؟

ـ ربما ... ربما

ـ اننا على اتفاقفى جوهر الموضوع. وهو انك لاترينني أسن بكثير من أن أتزوجها !

ـ انى يابومى أعتقد ان البشر لا يمكن أن يكونوا أسن من أن يقدموا على اى شيء لديهم القدرة عليه والرغبة فيه

ـ عظيم

ـ واذا لم يكن لديك مانع . فانا أحب ان أرى بولين متى يمكنني أن أراها ؟

ـ انت رائعة حقا يامارجريت . لم يخطر ببالى انك ستقابلين النبأ بهذه الروح . وسآتى ببولين معى غدا ان كان هـذا يوافقك . ومن المستحسن أن تأتى لتناول الشاى ، لان لديها عملا فى المستشفى فى الصباح وفى المساء . سآتى بها بعد الظهر . ولكن لا تخبرى أمى . اذ يحسن أن تقابلها فى فرصة أخرى

وتركها بومى ليذهب كعادته كل ليلة الى الحديقة الشتوية وسمعته وهو يهبط الدرج يصفر بأنغام لحن شاع فى المدة الاخيرة ، فأدركت ان كلامها أسعده كثيرا . ثم طالعت رسالة كارول مرة بعـد مرة الى ان أصبحت كل كلمة من كلماتها كائنا حيا يتعلق بها وهى جالسة وحدها فى حجرتها :

« لو انك فقط فتحت لى باب الامل ووعدتنى نصف وعد ... »

وفجاة شعرت انها لا تبالى مما سيقوله بينج أو بومى أو أمها أو العالم كله . نعم انها ستقدم على ذلك العمل الباسل الجميل الذى تشعر ان لديها القدرة عليه والرغبة فيه : ستتزوجه ! ستمنحه نفسها جسدا وعقلا وروحا . لن يعنيها بعد ذلك شيء . لان كل ما عدا هذا سيكون بمثابة خيانة للانوثة القصوى التى تشعر بها فى اعماقها

وعلى فرض انه سئمها يوما وقد علت بها السن وهو لم يزل فى ريعان شبابه ، فلن يضيرها ان تتركه يومئذ لامراة اخرى ، وسيسعدها ان تعيش بجمال الفعل الجرىء الذى واتتها الشجاعة على تحقيقه!!

وجلست فكتبت اليه رسالة قصيرة بسيطة ... تخبره فيهـ انها قد غيرت رايها وانها سوف تتزوجه . وذهبت بنفسها فألقت بالخطاب فى صندوق البريد خارج أسوار البيت . فلما فرغت من ذلك الامر الذى لا رجوع بعده ، أحست بالسعادة تغمر قلبها وتفيض منه . لقد كانت هذه فرصتها الوحيدة . وقد واتتها الشجاعة على انتهازها !

ولما عادت الى البيت استقبلها بومى فى البهو وسألها :

ـ هل كنت تتنزهين ؟

فأومأت اليه برأسها . فقال :

ـ لقد أفادك استنشاق الهواء فائدة هائلة . انظرى فى المرآة الى لون بشرتك . ياله من لون رائع ... والحقيقة أننا كلينا لا يبدو علينا سنا

وعقد ذراعه بذراعها واوقفها بجانبه امام مرآة وصاح :

ـ انظرى ! من ذا يقول اننا كلينا قد تجاوزنا الاربعين ؟ ولكننا تجاوزناها . ومع هذا لا اعتقد اننا كنا احسن صحة ولا أنضر منظرا مما نحن الان !

□

وأتى بومى ببولين لتناول الشاى بعد ظهر اليوم التالى . وكانت كما قال بينج وكما انكر بومى بدينة قصيرة ، ولكنها وسيمة ، ولها صوت يدل على ثقافة وذكاء . ولغتها فى الحديث مهذبة راقية ، وشعرها جميل ، ويداها بديعتان للغاية . فشكلها العام ليس منفرا انها مقبولة ولكن ما الذى حمل بومى على التفكير فى الزواج منها ؟ هذا مالم تستطع مارجريت ان تتصوره

وكان الجو جميلا فأخذ الثلاثة يتنزهون بين خمائل الحديقة قبل تناول الشاى . وتحدثت بولين كثيرا عن العمل فى المستشفى . ولعل هذه كانت وسيلتها لاخفاء ارتباكها ، وكان بومى يتعمد ان يعامل بولين فى الظاهر كما يعامل اى انسان آخر ويصر على اخفاء اعزازه وحبه فبدا فى كلامه معها مهذبا مجاملا جدا كعادته مع جميع الناس . لم يرفع التكليف . اما هى فلم تستطع مارجريت أن تدرك حقيقة شعورها نحو بومى ، وهل قبلت الزواج منه عن حب أم طمعا

فى المال والمركز الاجتماعى • انها لا تبدو ذات دهاء • ولعلها قبلت الزواج منه لان أحدا سواه لم يطلب يدها

وبعد الشاى انتهزت مارجريت فرصة توجه بومى لاعداد السيارة كى يقلها الى المستشفى ، وقالت لبولين :

ــ أقدم اليك التهنئة وآمل ان تكتب لكليكما السعادة

. . اشكرك كثيرا جدا • واظننا سنسعد معا لانه انسان ظريف

ولم تسنح الفرصة لمزيد من الكلام بينهما ، لان بومى عاد ، وسأل مارجريت عن رأيها فى بولين قبل ان يصحبها ، فقالت له :

ــ أكرر لك التهنئة . وهى فى الواقع جميلة . وما ابدع هاتين اليدين !

وبعد انصرافهما احست احساسا جازما ان بومى مهما كان لطيفا ظريفا فلن يستطيع فهم علاقتها بكارول . فلابد ان يفاجئه ذات يوم وهو بين ازهاره فى الحديقة ويعلنه برغبتهما فى الزواج . وكذلك سيواجهان معا بينج وجميع الناس : باعلان اشبه بانذار أخير منه باعتراف أو افضاء

وشهدت الايام الاخيرة من اكتوبر تحول الحرب الى طوفان من الانتصارات التى لا يكاد يصدقها العقل . فكانت اخبار النصر هى المسيطرة على الصحف والتليفون وأحاديث المائدة . وكان بومى متحمسا جدا لهذه الانباء فجعله الحب والتحمس شديد الرضا عن نفسه ، وراضيا حتى عن بينج • وذات يوم قال لها وقد انقضى أسبوع على حفلة العشاء التى اعلن فيها رغبته فى الزواج :

ــ اتعلمين يا مارجريت ان بينج صار لطيفا معى جدا فى الايام الاخيرة ودعانا للذهاب الى بيته وتناول العشاء فى الاسبوع القادم . انت وانا وبولين ؟ واظنها طريقته الخاصة فى التلويح بغصن الزيتون

وكان كلامه عن بينج بلهجة التلميذ الذى يتحدث عن الناظر المرهوب المحترم . . !

واقيمت تلك المادبة فى مساء ٣ نوفمبر . وفى ذلك اليوم نفسه وقعت النمسا الهدنة وسلمت تسليما كاملا . واحتل الطليان تريستا واقيم مجلس وطنى فى المجر • وتمرد البحارة الالمان فى كييل ، وتقدمت القوات الفرنسية والامريكية ثمانية أميال على طول الجبهة

الغربية ، وفى نهاية السهرة ، بعد العودة الى البيت فى الساعات الاولى من الصباح ، قال بومى لمارجريت ان الليلة كانت رائعة

وظلت مارجريت فى انتظار خطاب من كارول وان كانت فى الظاهر تقاوم كل احساس بالتطلع أو القلق . لانها كانت تعلم ان الحرب تؤخر الخطابات . وان الاحداث الاخيرة تساعد على مزيد من التاخير ولذا لم تشعر بمرارة كبيرة عندما اقبل الاسبوع الثانى من نوفمبر ولم تصلها رسالة من كارول

وفى هذه الاثناء كانت الحرب تتجه اتجاها سريعا الى نهايتها المحتومة . وكان ذلك عسير التصديق على الناس الذين تعودوا استمرار المعارك وتعاقبها تلك السنوات الطويلة . لم يصدقوا ان الحرب يمكن ان تنتهى كما بدأت فى لحظة معينة ، من ساعة معينة ، فى يوم معين !!

وفى ذلك اليوم المكفهر . يوم الاثنين الحادى عشر من نوفمبر كانت مارجريت جالسة تحرر الشيكات لمصروفات البيت الشهرية ، عندما رن جرس التليفون ، وكان المتحدث بومى من مكاتب مصنع السيارات فى جلوسستر :

ـ هناك شائعة قوية عن احتمال توقيع هدنة فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم . وقد تتمخض هذه الاشاعة عن لا شىء . ولكنى قدرت انك تحبين ان تعرفيها . والعمال هنا بسبب هذه الشائعة لايستطيعون العمل . وهذا طبيعى فيما أعتقد . قولى للسائق روجرز عندما يأتى لاحضارى ان يأتينى بعلبة سجائرى ، فقد تركتها على المنضدة فى حجرة نومى

وفى الحادية عشرة رن جرس التليفون مرة أخرى وسمعت صوت بومى مختلطا بصفارات المصنع وصياح مئات الناس :

ـ تم توقيع الهدنة يا مارجريت . أتسمعين صفاراتنا وهتاف العمال ؟ الجميع هنا يكاد يخرجهم الفرح عن صوابهم . سنغلق المصنع بقية اليوم . ارسلى روجرز فورا ليأتى بى

انتهت الحرب اذن . وغمرها شعور بطىء متمهل من السعادة . كان شعورا قويا بلغ من شدته أنه سبب لها ألما . لقد توقفت المدافع وانتهى خطر الغارات ولم يعد هناك خطر يتهدد كارول فى الجبهة .

انها تستطيع الان ان تشعر بما لم تشعر به من قبل بالعاطفة الصافية القوية التي تربطها به وكأنها كانت لا تجرؤ على حبه والحرب تهدد سعادتهما . فكأن تلك السعادة كانت محتبسة ، ثم أفرج لها عنها دفعة واحدة

ورن جرس التليفون مرة ثالثة ، وتحدثت بولين من المستشفى ، وكانت شديدة الفرح والحماسة . كانت تتكلم كالمجنونة :

ـ أريد أن أرقص واقفز أو أمشي على يدى . أريد ان افعل اى شيء لقد كلمت بومى الان فى المصنع ، وطلبت منه ان يأخذنا لقضاء السهرة فى لندن الليلة ، فلابد انه ستكون ثمة احتفالات تستحق المشاهدة فى الويست اند . فهل تأتين يامارجريت ؟

ـ اتريدينني حقا أن آتي ؟

ـ طبعا أيتها البلهاء ! ثم ان بومى لن يذهب اذا لم تات انت فأخلاقه لا تسمح له بالسهر مع خطيبته من غير حراسة ! وخصوصا اننا قد نسهر الى الصباح ... استعدى على كل حال لان بومى يرى ان نذهب بعد الغداء مباشرة

وجاء بومى لتناول الغداء وأخذ يشرح لها مبررات تلك الرحلة ، وكأنه يعتذر عن شيء سخيف :

ـ أنا لا أهضم المظاهرات والزحام . ولكن بولين مصممة على الاشتراك فى أفراح الليلة فى لندن . ولاشك انه سيفرح قلبها ان ترى لندن متلألئة بأنوارها لاول مرة بعد الحرب . ويحسن ان تأمرى كوكسون باعداد بعض الطعام لنحمله معنا . فقد لا نستطيع الليلة ان نحصل على طعام يستحق الذكر فى زحام لندن . واعتقد اننا سنأخذ السيارة الليموزين الكبيرة ولا اظنك تضيقين بالذهاب معنا

ـ كلا على الاطلاق

وشرب بومى نصف زجاجة الشمبانيا ، ثم ذهب الى الحديقة ليتفقد ازهاره وأشجاره . ودعا مارجريت للطواف معه ، ولكنها اعتذرت وصعدت الى حجرتها كي تبدل ثيابها . ثم نزلت الى قاعة الجلوس ، وقرأت احدى المجلات فى انتظار عودته . واصدرت الى كوكسون تعليمات بشأن المشروبات التى يضعها فى السيارة مع الطعام

وبعد لحظات رجع اليها كوكسون وفي يده بضعة خطابات وصلت لتوها . وكان احدها دعوة لحضور سوف خيرية راقصة . وكان هناك خطابان آخران يحويان فواتير من التجار . أما الخطاب الرابع فأدهشها فى البداية لانه يحمل طابع بريد فرنسيا . وبخط يد لا تعرفه ولم تره من قبل وفضت الخطاب وقرأت منه

« عزيزتى مس فرينشام

« أكتب اليك هذا بتكليف من المسكين كارول . لقد كان أعز أصدقائى . وكنا كلانا فى غارة جوية .. وطلب منى اذا حـــدث له مكروه أن أكتب الى خطيبته لأخبرها أنه كان فى قمة السادة بسبب الخطاب الذى وصله منها فى الصباح قبل قيامنا بالغارة بساعة واحدة . وسلمنى عنوانك . ولم يعد المسكين . ولذا فانى أكتب اليك لاقول أن وفاته كانت سريعة ولم يشعر بأدنى آلم ..

وليم ت . جيفرسون

والقت برأسها على ظهر المقعد الذى كانت جالسة عليه . ومن بعيد جاءها صوت بولين وبوسى يناديانها كي يركبوا السيارة الى مهرجان النصر

الفصل الثاني عشر

صدام عنيف

اقبل بومى يخترق الحدائق فى بزة انيقة غاية الاناقة ، ودبوس ربطة عنقه الماسى يلمع فى ضوء الشمس ٠ ورأته مارجريت من بعيد حينما غادر سيارته عند المنعطف وتقدم يمشى نحو الدار فى خطوات سريعة خفيفة ، والابتسام يفيض من وجهه وكأنه صورة أخرى من اشراق السماء فى ذلك اليوم الدافىء المشمس من أيام يولية

ولما أصبح على مسافة عشر خطوات منها خلع قبعته ، فعبث الهواء عبثا يسيرا بشعره . وهتفت مارجريت :

ــ أهلا بك يا بومى

ــ لقد خطر لى أن امر بك لاستفسر عن احوالك !

وكانت هذه عبارته التقليدية التى يبادرها بها كلما حضر

ــ هل كنت تجرب سيارتك الجديدة ؟

ــ نعم ! انها آخر طراز فاخر . وبها كل التحسينات . كيف حالك ؟

ــ على أحسن حال . وأنت كذلك فيما أرى

وكانت مارجريت تجمع ازهارا من الحديقة ، أزهارا حمراء فحملتها فى يدها واقترحت عليه التجول فى الحدائق . وهو الاقتراح الذى كانت تعرضه عليه فى كل زيارة فكان يقبله دائما فى تلهف . ويظل يسأل عن آخر انباء الازهار الجديدة

واثناء التجوال سألها :

ــ كيف حال الوالدة ؟

ــ كما هى ... وكيف حال بولين ؟

ــ على ما يرام ٠ وهذا يذكرنى بأنى وعدتها أن أعود لتناول الغداء

فى ساعة مبكرة ... والحقيقة يامارجريت انى أريد أيضا أن أحدثك فى موضوع معين ...

ــ عن بولين ؟

ــ كلا . لقد سويت هذه الموضوعات . أو على الاقـل تركنا الخوض فيها . كلا يا مارجريت . ليس حديث اليوم عن بولين . بل عن بينج ...

ــ بينج ؟

ــ نعم . ويحسن أن أكون صريحـا معـك . لانى سأكلمك فى موضوع وعدت بينج وعدا قاطعا الا أخبرك به . فهل ترين أن ذلك يجوز لى ؟

ــ عزيزى بومى . ياله من سؤال توجهه الى امرأة لديها نصيب طبيعى من الفضول النسوى ! كيف يخطر لك أن جوابى سيكون لا ؟

فضحك واحمر وجهه قليلا ثم قال :

ــ الحقيقة أن الرجل على شفا انهيار عصبى فيما يلوح لى وان كان من الصعب التصديق بأن بينج يمكن ان يصاب بانهيار عصبى . ولكن أمتن الحبال لابد أن ينقطع اذا اشتد الضغط عليه . ولاشك فى أن بينج اكتنفت حياته بالمتاعب والمنغصات الضخمة فى الفترة الاخيرة . من سوء الاحوال التجارية الى الاضراب العام ... فضلا عن متاعب الاسرة

ــ هذا صحيح . وانى مسرورة لحصوله على لقب البارون . فهو فى الواقع يستحق ذلك

ــ وهذا اللقب أيضا اتعبه الحصول عليه . لان الكثيرين كانوا يحاربونه . حتى أنه منذ شهر يئس تماما من صدور الانعام . ومنذ أيام أفلت زمام أعصابه من يده وجعل يصيح فى المكتب ان الدنيـا كلها تحاربه ، وأن القدر يعاديه ، وأن رجال الحكومة والعمـال وأولاده وأسرته كلهم ضده . وخص بالاشارة ... خصك انت !

ــ أنا ؟ هل قال أنى ضده أيضا ؟ ولكنه على خطأ فى هذا !

ــ لقد اعتذر بعد ذلك ، واستخرج منى وعدا بألا أخبرك . ولكنى اعتقد أن هذه الفكرة راسخة فى أعماقه . وربما نشأت لديه من كونك لا تدعينه فى المدة الاخيرة الى غداء أوعشاء

ـ وأنت أيضا لم تدعه مرة واحدة ؟

ـ وهو أيضا لم يدعني الى بيته مطلقا

ـ وهل تذهب ان دعاك ؟

ـ غالبا لا . فأنا لا أستريح لتمضية الوقت معه . وليس هذا لانى لا أحبه أو لا احترمه أو لا اعجب به ، بل لميله الى السيطرة بصورة لا تستريح اليها النفس

ـ وهذا شعورى . ولكنه مخطىء فى اعتقاده أننى أحاربه . فمنذ وفاة ليلى وأنا أتمنى أن أخف لمعونته . ولكنى لم اقدر أنه بحاجة الى معونة . فهو فى العادة يضيق بكل من يبدى له أنه عاجز عن القيام بكل شىء على أحسن وجه

ـ هذا كله صحيح . فهذه طريقته وهذا طبعه . ولكن يخيل الى أنه لو امكنك أن تفعلى شيئا يبين انك لست ضده كما يظن ، كان ذلك افضل

ـ وماذا تقترح فى هذا الشأن ؟

ـ أنا لا أريد أن تصنعى شيئا تكرهينه . ولا أن يكون تصرفك واضحا بحيث يدرك أننى فاتحتك فى الامر . مجرد لفتة . واعتقد أن الانعام عليه بلقب بارون يعتبر فرصة مناسبة لهذه اللفتة

ـ وكيف ذلك ؟

ـ تذكرين أننا كنا فى الخارج عندما صدر الانعام ، فلم يتح لنا الا أن نبعث اليه برسائل التهنئة . ونحن الان فى أرض الوطن . وفى دارنا . فربما كانت مأدبة عشاء صغيرة . . .

ـ هنا ؟

ـ طبعا . فهذا هو اهم ما فى الموضوع . كى توجهى اليه الدعوة . وطبعا توجهينها لى ولبولين ايضا . وان كنت أتوقع منها الا تحضر

ـ سأفكر فى الامر يا بومى . .

وبعد انصراف بومى ظلت معظم فترة الصباح تفكر . فتراءى لها أن الحظ قد تنكر له فى الفترة الاخيرة فعلا . وكانت البداية فشله فى الانتخابات ثم ماتت ليلى فى السنة التالية . وكانت وفاتها فجأة على اثر اصابة بالانفلونزا . واعقب ذلك اضراب عام بين عمال جميع المصانع . ثم اضراب عمال الفحم . ثم ارتفاع أسعار المطاط ، وكثير

من المواد الاولية ارتفاعا جعل بينج يشكو ويتذمر . ولولا الانعام عليه بلقب بارون لكانت حالته المعنوية فى منتهى السوء . وعن لهما أن اقامة حفلة عشاء كما اقترح بومى ابتهاجا بحصول بينج علي ذلك اللقب عمل يدل على المجاملة ، وينعش معنوياته

وفى المساء تحدثت الى بومى بالتليفون ثم أرسلت رقاع الدعوة الى مأدبة العشاء الصغيرة فى مساء التاسع عشر من الشهر . وكما توقع بومى اعتذرت بولين . لان حالتها النفسية بسبب الحمل لا تسمح لها بحضور مثل هذه المناسبات . وهى فى الوقت نفسه لم تكن يوما من الايام ودا لبينج او ليلى . ولكنها سمحت لبومى أن يتركها ويذهب . ومع هذا قال بومى أنه لن يسهر طويلا

ووجهت الدعوة أيضا الى بيتر اكبر ابناء بينج الذى التحق بجامعة كمبردج ، أما اخوته فما زالوا أصغر من أن توجه اليهم الدعوة . وكم أدهش مارجريت نجاح تلك المأدبة الصغيرة . وكان بينج بادى الانشراح ، فأكثر من رواية الحكايات الطريفة والنكت اللاذعة . وكانت سنه الان خمسا وخمسين سنة،وقد أضفت عليه مزيدا من الجرأة ، فأصبح صوته أعلى من ذى قبل ، وضحكته المجلجلة تهز الجدران . فكان من يراه ويسمعه يعتقد أنه أبعد الناس عن الانهيار العصبى . وكان ابنه بيتر لطيفا لبقا ، تبدو عليه معالم الشخصية القوية بعد أن أمضى عاما فى الجامعة . وقد أصبح شابا نحيلا وسيما أزرق العينين ، متفوقا فى ملاعب الرياضة. ينم حديثه عن اطلاع واسع . فهو يتكلم بطلاقة عن فرويد وبروست وبيكاسو . وكان واضحا انه شديد التأثر بالنظريات الجديدة . ولم تكن لمارجريت دراية كبيرة بهذه المستحدثات فكانت تصغى لمايقول ابن أختها باهتمام واعجاب

وفطنت من نظرة عينيه كلما ذكر اسم أبيه ان العلاقة بين الاب والابن ليست منزهة عن الشوائب . بل انه صرح لمارجريت بقوله .

— ابى يريدنى ان انضم الى ادارة المصنع . ولكنى طبعا لن أرضخ لهذا . فأنا أمقت هذا النوع من العمل ..

وفى الساعة العاشرة أصر بومى على الانصراف ، فقرر بينج أن ينصرف أيضا . وصعد الجميع لتقديم التحية الواجبة للوالدة

العجوز فى حجرة نومها . ووجدوا صعوبة فى تبادل الحديث معها لما طرأ عليها من ثقل السمع . ولكنها حرصت على تهنئة بينج بالرتبة ، وعلقت مارجريت على ذلك بقولها :

ــ ان الممرضة تقرأ لها جميع الصحف الصباحية والمسائية . رغم ما يكلفها ذلك من رفع الصوت ساعات طويلة

وفى البهو قال بومى :

ــ أليس رائعا ان تكون صحيحة الاعضاء حاضرة الذهن ، وهى فى هذه السن ... فى الخامسة والثمانين ؟

فحملق بينج فى وجهه لحظة ثم هز كتفيه وقال :

ــ اتسمى هذا شيئا رائعا ؟ اتمنى على الله الا اعيش حتى ابلغ هذه الروعة . أسأله متى أمسيت عاجزا عن العمل المثمر مفتقرا الى القوة الكافية للانتصار أن يضع حدا لايامى !

وفى هذه اللحظة أدركت مارجريت ان الرجل يمر بمحنة نفسية حقيقية ، وان يكن قد استأنف بعد ذلك فرحه الصاخب كالمعتاد ، ولم ينس وهو يودع مارجريت أن يدعوها لرد الزيارة بعد ثمانى سنوات من الانقطاع

◘

كان انقطاعا ولكنها لم تكن قطيعة . لان الاتصال المباشر أو غير المباشر كان مستمرا عن طريق بومى . وكان بينج يكتب اليها أحيانا ليقدم اليها النصح فى مسائلها المالية التى يعرف عنها كل شىء . واليه يرجع الفضل فى مضاعفة ثروتها بعد الحرب مباشرة عن طريق البيع والشراء فى بورصة الاوراق المالية . وفعل مثل ذلك بثروة أخيها ووالدتها . فلم تدر ماذا يكون مصيرهم جميعا لولا جهوده وحصافته

وفى أواخر شهر اغسطس تلقت هى وبومى الدعوة لزيارته فى ضواحى جلوستر بالقرب من المصنع . وكان بيته فخما تبدو عليه مظاهر النعمة الحديثة . وكان خدمه جميعا من الدرجة الثانية لان الممتازين لا يطيقون معاشرة رجل حاد الطبع مثل بينج . ولكنه كان يعلل ذلك بأن خدم هذه الايام جميعا من البلاشفة

وكان معظم حديثه على المائدة عن الاضرابات . وكان اضراب

عمال الفحم لم يزل قائما . وكأنما شاء القدر أن يمعن فى اغاظته فجاءه الساقى يقول :

ــ تحت نوافذ البيت يا سيدى جمع كبير من المنشدين . انها فرقة جوالة تغنى وتجمع التبرعات لعمال الفحم المضربين

ــ يا للعنة ! قل لهم ان يذهبوا الى الجحيم ... بل انتظر ! قل لهم انى أحب أن اقابل واحدا منهم . واحدا فقط . وعندما يختارونه جئنى به !

ولما خرج الساقى لتنفيذ هذا الامر قال لمارجريت ويومى :

ــ سترون الآن مشهدا طريفا . لانهم يعرفون من انا وسيختارون لمقابلتى اخطر بلشفى فيهم . وسأعرف كيف أتعامل معه !

وبعد قليل دخل القاعة شاب نحيل اللون فى نحو الثلاثين من عمره وقبعته فى يده ، ويرتدى احدى بذلات العمال الزرقاء . وحدق الغريب فى كئوس الشراب والاطباق التى تزخر بها المائدة وفى الشمعدان الضخم . وبادره بينج بقوله وهو يضطجع فى مقعده ويعض على طرف السيجار الضخم :

ــ والآن ياسيدى ما المسألة ؟

ــ انت أرسلت فى طلبى

ــ ذلك لانى أريد أن القى عليك بضعة اسئلة . اولها من انت وماذا تفعل فى جلوسستر بحق الشيطان ؟

ــ انا من فرقة المنشدين لصالح عمال مناجم الفحم فى ويلز . ونحن نجمع التبرعات لزوجات واطفال العمال المضربين

ــ انك تبدو كما لو كنت لم تأكل شبعك منذ شهر !

ــ هذا صحيح فعلا

ــ الذنب فى هذا ذنبك . فلا يجوز أن تعيشوا من خير البلاد من غير أن تؤدوا عملا

ــ ....

ــ هل انت جائع ؟

ــ نعم

ــ وسيزداد جوعك الى ان ينتهى الاضراب

ــ ....

ـ وهل جميع زملائك جياع ؟

وسر مارجريت أن ترى عينى الغريب تومضان كأنهمـا جمرتان ويصيح :

ـ نعم كلنا جياع . ولكننا نفضل الهلاك جوعا على أن نقبـل فلسا واحدا من ابن فاعلة مثلك !

وقبل ان تبدو آثار الدهشة لهذه الكلمة النابية على الحاضرين ، ترنح الشاب وسقط فوق مقعد مغشيا عليه . فأسرعوا جميعـا لنجدته وصب بومى فى فمه كاسا من البراندى . وأسرع بينج يفتح النوافذ . وبعد قليل أفاق الشاب . فسأله بينج بخشونته المعتادة :

ـ كم عددكم ؟

ـ عشرون عازفا ومغنيا

ـ ادخلوا بعد نصف ساعة من الباب الخلفي وسـيقدم لـكم الطاهى جميعا عشاء تاملا ايها البلاشفة الانجاس . ولا تحاول أن تجادل !

ولم يكن فى استطاعة الفتى أن يجادل لو انه اراد . وخرج معتمدا على ذراع الساقى

وساد التوتر جو القاعة بعد خروجه . وابدى بومى رغبـة فى الانصراف كى لا يترك بولين وحدها . ولم يبـد بينج الا الحاحا يسيرا جدا لاستبقاء الشقيقين

وفى السيارة اظهر الشقيقان امتعاضهما لسلوكه الفج السوقى :

ـ ايا كان لقبه فهو لا يمكن ان يكون جنتلمانا يا بومى !

ـ كلا يامارجريت . لن يكون جنتلمانا ما عاش

وكان هذا كل تعليقهما على الموقف

□

وفى ذلك الصيف كان نظام حياة مارجريت رتيبا خاليا من أى تغير . فهى عادة تتناول فطورها فى الفراش ، ثم تغادره فى منتصف العاشرة فتفض بريدها وتكتب بضع رسائل . ثم تصعد الى حجرة أمها فتقضى بها نحو ساعة . وتخرج من سيارتها ذات المقعدين مدة نصف ساعة ، وتعود لتناول الغداء ، ثم تخرج مرة اخرى بعـد الظهر للنزهة فى سيارتها المكشوفه وتتناول الشاى فى احدى البلاد

المجاورة ، ثم تعود لتناول العشاء . وقليلا ما كانت تدعو أحدا للعشاء ، لان بومى لا يستطيع قبول الدعوة من غير بولين وبولين لا تحبها ، وقد ايقنت من ذلك منذ عامين على أثر مشادة كلامية كشفت عن خفايا الصدور

وفى المدة الاخيرة صارحها بومى بأن بولين تبدى سخطها اذا فارقها وهى لا تستطيع الخروج بسبب الحمل . فأدركت مارجريت أن بولين تستغل هذا الظرف لتملى على زوجها ألا يزور شقيقته فى المساء . وهو فى الصباح مشغول غالبا فى العمل فى المصنع ، وزوجته لا تفتأ تتصل به تليفونيا لتتأكد من انه لم يذهب لزيارة مارجريت !

وكان تعليق مارجريت على ذلك انها ضحكت وقالت :

ــ كم بقى لها على اوضع يا بومى ؟

ــ ثلاثة أشهر

أراك !

وضحك الاثنان . لانه كان من المستحسن فى هذا الموقف أن يحملا الامر على محمل الهزل لا الجد

وفى هذه الفترة كان بينج غارقا الى اذنيه فى محاربة نقابات العمال . وكان يشعر بارهاق عصبى شديد سيسلمه الى الانهيار . ولم تفلح محاولة بومى لاقناعه بعدم جدوى هذه المعارك ضد النقابات · لان هؤلاء الناس انما يطالبون كأى انسان بمستوى معقول من الحياة · وأنهم لو وجدوا شيئا من حسن المعاملة لما جنحوا الى التمرد والاضراب · وفى هذه الحالة لن يجد المتطرفون مجالا صالحا لتهييج الخواطر

وذات صباح اختلس بومى زيارة قصيرة لها · واخبرها ان بينج قرر الدخول فى معركة الانتخابات الفرعية فى دائرة ملفورد وشعاره « مناهضة الاشتراكية » .مع أنه من المعروف أن هذه الدائرة دائرة عمالية ، ولن تقوم أمامه اقل فرصة للنجاح . ولكنه فيما يظهر ينشد الاشتباك فى معركة حبا فى العراك نفسه · وسيكون له فى هذه الانتخابات ما يريد من صدام خشن . ستثخنه الجراح من غير أن يفوز بشىء من غار النصر

الفصل الثالث عشر

الأب والابن

وقبل أن ينتصف شهر أكتوبر علمت مارجريت أن بينج يواجه مزيدا من المتاعب . فالمصادمات الليلية التى حدثت فى اجتماعاته الانتخابية بدائرة ملفورد ، والتى اتت على وصفها الصحف ، كانت تدل على أنه يواجه فى تلك المعركة اعنف امتحان صادفه فى حياته

وكانت هناك محنة أشد من هذا لايعرفها عامة الناس . ومصدر هذه المحنة ابنه البكر بيتر الذى أثار سلوكه فى كمبردج سخط والده الشديد . ففى ذات يوم اتصل بومى بمارجريت فى الصباح تليفونيا وقال لها :

ــ لم استطع أن استخلص من بينج ما الذى ارتكبه الفتى بالضبط وأعتقد أنه اسرف فى الانفاق ، أو انحرف فى هذا الاتجاه أو ذاك . وبينج على كل حال ثائر ثورة لا يتصورها العقل لهذا السبب . لم يكن ينقصه الا هذا وهو يلاقى الامرين من المعركة الانتخابية الفرعية ومتاعب المصنع ...

. اتظن اننا نستطيع أن نمد يد العون ؟

ــ العون ؟ لمن منهما ؟

ــ لكليهما . أو لاحدهما فهذا اعتبار ليست له أهمية كبيرة ان استطعنا ان نصلح ذات بينهما

ــ فى وسعك أن تحاولى ذلك ان شئت . اما انا فقد حاولت ولم تكن النتيجة مشجعة . لقد اقترحت عليه ان أسرع إلى كمبردج وأتحدث الى الفتى بطريقة ودية . ولكن بينج قال أن مايحتاج اليه ذلك الفتى ليس الحديث الودى بل حبل المشنقة ... فاذا كان هذا

هو اتجاه تفكيره فاظن ...

نعم انها تستطيع أن تخمن معظم تصرفات بينج واتجاهات تفكيره. ولكن المسألة كانت ذات صبغة هامة بالنسبة لها رغم اجتهادها في ابعادها عن ذهنها ، باعتبارها مسألة لا تخصها . وظلت هذه المشكلة تلح فى تفكيرها . يا لاسرة أختها الراحلة من أسرة عجيبة ! فهذا بيتر فى الثامنة عشرة فى الفرقة الاولى بالجامعة . وهذا ميكى فى السابعة عشرة بالفرقة الاخيرة بالمدرسة الثانوية وهذه جون فى السادسة عشرة رئيسة القسم الداخلى بمدرستها الراقية . وهذا بريان فى الخامسة عشرة يحذو حذو ميكى خطوة بخطوة . وهذان هما افريل فى العاشرة وروبرت فى السابعة فى مدرسة ابتدائية داخلية فى شلتنهام . وكلهم أشبه ببينج منهم بليلى . فشخصياتهم جريئة وفيهم نصيب ضخم من غريزة النزال . وكانت ليلى فى حياتها عاجزة تمام العجز عن سياسة أمورهم ، ولذا نفضت يديها منهم فى سنواتها الاخيرة ، وادخلتهم جملة فى المدارس الداخلية . فهذه المتاعب التى يثيرها بيتر ربما لم تكن الا مناوشة أولية تسبق معركة طويلة بينه وبين الاسرة لابد فى النهاية أن تنتهى بهزيمة بينج

وشعرت مارجريت مرة أخرى بشىء من الشفقة به ؛ فهى تعلم تمام العلم أنه يخفى وراء مظهره العاصف الجافى تعلقا حقيقيا وحنانا على أطفاله . وأنه انجب كل هذا العدد من الاطفال لانه يحب الاطفال ويريدهم

ولذا شعرت مارجريت وهى تقود سيارتها نحو ملفورد ذات صباح من شهر اكتوبر بثقة غريبة تملأ جوانحها . وكان رأيها قد استقر على مواجهته صراحة وسؤاله بلا مواربة عن موضوع بيتر . وادهشها أنها لم تشعر بعد أن استقر رأيها بادنى خوف منه

ووصلت الى ملفورد قبل الظهر وهى بلدة صناعية بالقرب من برمنجهام ، تزدحم بالمصانع وخطوط السكك الحديدية وبصفوف متشابهة من الاكواخ . وتعتبر قلعة من قلاع العمال الانتخابية . لان نائب البلدة كان دائما من ذلك الحزب ، فكان ترشيح بينج لنفسه هناك عملا من اعمال التحدى المقضى عليه بالفشل سلفا . وامام مقره الانتخابى رأت لافتات ضخمة بحروف نارية « انتخبوا بينجلى

واخذلوا الخمر ! » .. وبعد قليل وجدت نفسها تواجهه براسه الضخم وكتفيه العريضتين العاليتين وشعره القصير الاشهب ، فكأنه خليط عجيب من لويد جورج وهندنبرج . كان يبدو قويا كالجبل الراسخ . بيد أن نظراته نمت عن ارهاق عصبى شديد . ولما خاطبها بدا صوته كالرعد الضعيف :

ــ مارجريت ؟ ما الذى جاء بك الى هنا ؟ هل كل شيء على مايرام؟ وبومى ؟ والوالدة ؟ وبولين ؟

ــ كلنا بخير . ولكنى فكرت فى الحضور لمقابلتك عندما سمعت ان هناك متاعب بخصوص بيتر . فخطر لى أننى ربما ...

فقاطعها بحدة قائلا :

ــ بيتر ؟ لا تشغلى نفسك به . اظنك كنت مفتوحة الاذنين لذلك اللغط الفارغ الذى يدور بصدده ؟

ــ قلت لك يابينج انه وصل الى علمى وجود مشكلة تتعلق به . وانه خطر لى انك ربما كنت مشغولا هنا فى الوقت الحاضر ولذا قد استطيع القيام بدور فى حل هذه المشكلة نيابة عنك

وثبتت نظراتها فى عينيه كأنها تتحداه أن يكون فظا . فقال برقة تخفى تهكمه :

ــ ولكن كيف بالله تظنين أنك مستطيعة مد يد العون ؟

ــ بينى وبين بيتر صداقة قوية . انه صلب الرأس كما أعلم ، ولكنى اظن ان لى بعض التأثير عليه

ــ أعظم من تأثيرى أنا ؟

ــ الجواب نعم مادمت مصرا على السؤال

وتوقعت أن ينفجر بركان غضبه . وانتظرت ذلك الثوران بهدوء شديد . ولكنه سألها بكل هدوء :

ــ وهل تعرفين موضوع المشكلة ؟

ــ كلا

ــ اذن أنت تتكلمين على غير أساس . فلو عرفت الحقيقة لادركت انك لاتستطيعين شيئا

ــ اذن خبرنى هذه الحقيقة

ــ ياعزيزتى مارجريت ، انا لا اريد لك ولا لغيرك أن تتعبوا

انفسكم وتصدعوا رءوسكم بمسألة خصوصية تماما محصورة بيني وبين ابني . لقد كان فضلا منك أن تأتي وأنا أقدر دوافعك . ولكنك في الواقع ضيعت وقتك . والآن تعالى نتغدى معا ان لم تكوني في عجلة من أمرك

وفي هذه اللحظة دخل احد الموظفين وقال لبينج :

ـ موعد الاجتماع الانتخابي أمام مصنع صهر المعادن بعد خمس دقائق ياسيدي . والسيارة معدة

ـ يا للشيطان ! لقد نسيت هذا تماما . ولكن لا بأس بهذا يامارجريت . تعالى معي وسننتهي من هذا الاجتماع بسرعة ونتغدى بعد ذلك

ـ ليكن

ونزلا الى الشارع وركبا معا سيارة فورد صغيرة مكشوفة ، اخترقت بهما شوارع وازقة ضيقة بين بيوت متداعية . وكان بينج يتحدث طول الوقت عن أوكار الشيوعية وعملاء البلاشفة والمهيجين المحترفين . ولكنها لم تكن ملقية اليه بالها معظم الوقت

وعندما وقف السائق بالسيارة أمام مصنع الحديد الكبير بدأت صفارات المصنع نشيدها المزعج . كانت لحظة انصراف العمال للغداء وتدفق المئات من الرجال والنساء من جميع انحاء المصنع . وفي مدى دقيقة واحدة كانت السيارة محاطة بجمهور صاخب لاغب . وبينج واقف ليلقي خطبته . ولكن جمهوره من العمال لم يظهر أي استعداد للاصغاء . فظل يشغب على الخطيب بالصفير والعواء والنهيق . فشعرت مارجريت بسخافة حضورها هذا المشهد . وان سخافة بينج كانت أشد حين دعاها للحضور . ومع ذلك شعرت بمتعة لخروجها من دوامة حياتها الرتيبة الى مثل ذلك المشهد المثير

وظل بينج يجأر ويصيح . فاستطاع بفضل الاصرار والمثابرة أن يتغلب على الشغب . وظهرت على ملامحه الضخمة أمارات الزهو والنشوة عندما تمكن من ارغامهم على الاستماع اليه . وكان الشرر الذي يتطاير من عينيه وهو يصب عباراته النارية بعد ذلك يجعل منه صورة رائعة لجواد عتيق من جياد الحرب استثارت كوامن

النزال فيه دقات الطبول ودوى الرصاص . وكانت عباراته نفسها تبدو هزيلة بالقياس الى صورة ملامحه وتعبير نظراته . كان أقوى مافيه ليس عقله ولا لسانه ، بل تلك الحيوية الطاغية التى شعر بها جمهور خصومه شعورا حسيا خفيا فانكمشوا متضائلين أمامه جماعة ووجدانا

والقى خطبته كلها كلمة كلمة وحرفا حرفا . ولكن من غير طائل . لان تجريحه الشديد لخصومه وتنديده العنيف بهم حرى أن يكسبهم عطف السامعين . وعجبت مارجريت كيف يطمع فى كسب معركة انتخابية بهذه الوسائل ؟ ولماذا وهذه اسلحته يصر على خوض مثل تلك المعركة ؟

وشعرت مارجريت بالارتياح الشديد عندما بدأت السيارة تتجه بهما الى وسط المدينة . وفى خير فنادقها انتحيا ركنا لتناول الغداء وظل طول الوقت يكلمها بصوته المرتفع متفاخرا بآرائه . وكان واضحا انه مسرور بصحبتها . وصارحها بأن ثباتها بجواره فى ذلك الاجتماع الصاخب أثار دهشته واعجابه . ثم سألها عن رأيها فقالت ببساطة :

ـ ان موقفهم ليدهشنى . فلو كنت أعيش فى خرائب ملفورد مثلهم لاعتنقت آراءهم حتما

ـ هذا هراء يامارجريت . وان كنت أجد لك عذرا أكثر مما اجده لفتى تربى فى ارقى المدارس ، ودرج فى مهاد الترف والنعمة . تصورى أن ابنى يتصدى لخصومتى وينضم الى ناد للعمال فى كمبردج ويمسى شيوعيا !

ـ وهل هذه هى كل المشكلة ؟

ـ يا الهى ! وماذا تريدين اكثر من هذا

ـ لقد ظننت المسألة خطيرة حقا

ـ أنها خطيرة بلا شك حين يكون هذا الفتى ابنى انا

فسألته باسمة وبكل بساطة :

ـ لماذا ؟

ـ اتقولين لماذا ؟ أليس الامر واضحا غاية الوضوح ؟ انظرى الى . الى مركزى . الى سمعتى . الى ...

ـ وكيف يمكن أن يؤثر سلوك بيتر فى هذا كله ؟

فحملق فى وجهها بعينين تتقدان كالجمر ، واخرج من حافظته قصاصة من قصاصات الصحف الشعبية . وكان عنوانها « الابن يخطب ضد ابيه ... موقف سياسى فريد فى ملفورد » وقرأت القصاصة :

« من بين الشخصيات التى تقرر قيامها بالقاء الخطب الانتخابية لصالح المرشح الاشتراكى فى معركة الانتخابات الفرعية بدائرة ملفورد ، المستر بيتر بينجلى ابن السير اوين بينجلى المرشح المناهض للاشتراكية فى هذه الدائرة عينها . وقد اثار هذا الموقف الفريد فضول جميع الناس فى الدائرة . فمستر بيتر بينجلى شاب دون العشرين من العمر وطالب بجامعة كمبردج »

ولما ردت اليه مارجريت القصاصة سألها :

ـ أترين هذا الموضوع تافها هينا ؟

ـ لعل فيه من الطرافة أكثر مما فيه من التفاهة !

ـ طرافة ؟ هأنتذى ترين أنى اقاتل ضد جميع الاعتبارات فى هذه المعركة . ثم أرى ابنى البكر يدخل المعركة ليقاتل فى صفوف أعدائى اتسمين هذا شيئا طريفا ؟

ـ سواء كان طريفا او غير طريف . فهذا شىء أصبح مألوفا فى ايامنا . فالبدعة الجديدة أن ينضم أبناء الاغنياء الى حزب العمال . انظر الى بلدوين !

ـ انى أدرك الآن كم اساء اليه انضمام ابنه الى الاشتراكيين !

ـ بالعكس ! لقد افاده هذا كثيرا لانه أثار اشفاق الناس عليه

وكانت هذه العبارة القشة التى قصمت ظهر البعير . فتقلصت ملامحه وصاح بها عبر المائدة :

ـ وهل تظنين أنى ابتهج لشعور الناس نحوى بالشفقة ؟ انى استطيع ان اتحمل كل شىء فى الدنيا ماعدا هذا !

ولكنها كانت مشفقة عليه آسفة له . فمنذ بضع سنوات كان من ألمع الشخصيات فى انجلترا ، ولم يكن احد يتوقع له التعثر فى يوم من الايام . وهاهو ذا الآن يشعر بتألب جميع القوى والعناصر ضده وقالت له وهى تنهض منصرفة :

ــ ربما قابلت بيتر قريبا يابينج

فأشار بيده اشارة ليس لها معنى معين وقال :

ــ وهل أملك أن أمنعك من رؤياه ؟

وبعد ثلاثة أيام رحلت الى كمبردج بالقطار . واستقبلها بيتر بسرور شديد قائلا :

ــ ما أعظم ابتهاجي بحضورك ياخالتي مارجريت . لاني كنت بحاجة ماسة للتحدث معك

ــ وأنا كذلك . وهذا هو سبب حضوري

وفي حجرته التي تطل على الفناء الكبير لكلية الثالوث بادرها بقوله :

ــ أظنك تعلمين أنني سأخطب في ملفورد ؟

ــ علمت هذا . ودهشت لانني لم أكن أعلم انك تهوى الخطابة

ــ لم اكن أهواها في البداية . ولكني جربتها في اجتماعات الاتحاد واظهر بعض الناس تقديرا لموقفي الخطابي

ــ أن الخطابة شيء جميل وموهبة عظيمة

ــ عندما يكون الانسان متفوقا فيها . ولكن اخشى أن اكون متحدثا من طراز عادي جدا

ــ التمرين كفيل برفع المستوى وتلافي الاخطاء . واظن أهل ملفورد وجهوا اليك الدعوة كي تلقي خطبتك هناك ؟

ــ نعم . فمرشح العمال له صديق في نادي العمال هنا . وكنت قد وعدت النادي بالمساعدة في اية معركة انتخابات فرعية . وكان هذا قبل ان اعلم أن والدي ينوي ترشيح نفسه في ملفورد . فلم يكن في وسعي التنصل من وعدي بخصوص مسألة عامة بسبب عائلي خاص

ــ بل يبدو لي أن ما تسميه سببا عائليا خاصا حري ان ينهض عذرا لو انك اردت الخروج من المأزق حقا

ــ ربما . ولكني لم أرد ذلك !

فصمتت وجعلت تنظر الى وجهه الجاد ، انه شديد الشبه بأبيه . وهو مثله مقاتل مطبوع . وقالت له بعد حين :

ـ أعطني سيجارة يابيتر

وللفور تلاشت الحدة من ملامحه وحلت محلها الدماثة والرقة وهو يقدم لها أنواعا مختلفة من اللفائف الامريكية والمصرية ثم قال لها :

ـ أنا لا أقدر رأيا لاحد من افراد الاسرة مثل تقديرى لرايك . ولذا أحب أن تصارحينى به

ـ هذا ما حضرت بسببه يابيتر سواء طلبت منى رأيى أو لم تطلبه . وينبغى ان تعلم قبل كل شيء أننى لا ألومك على معتقداتك السياسية أيا كانت . فهذا من شأنك وحدك . ولكنى أعتقد فى الوقت نفسه أن تصديك لمساعدة خصم ابيك فى الانتخابات بهذه الصورة الواضحة ليس خطأ بمعنى الكلمة ولكنه فساد ذوق . هذا هو رايى وأرجو ألا تضيق به

فاحمر وجهه احمرارا شديدا لان تهمة فساد الذوق لمست فيه وترا حساسا وقال :

ـ الحقيقة اننى كنت افكر فى تغيير موقفى لو لم يصلنى من والدى خطاب عاصف عنيف . ويكفينى أن اطلعك عليه

وقدم اليها اربع صفحات مكتوبة على الآلة الكاتبة على أوراق المصنع . وكانت العبارات مما لا يصدر عن رجل متزن . وناهيك باملائها على سكرتيره . فما اعنف ما تضمنته من الشتائم والتهديدات لان بيتر انضم الى ناد لا يرضى بينج عن لونه السياسى . فلما فرغت من تلاوة الخطاب سألها بيتر :

ـ اتلومينني الآن ؟

ـ لا ألومك اطلاقا

وحضر الغداء الذى أوصى به بيتر ومعه زجاجة من الشمبانيا المثلجة . وانصرفا لتناوله وكان الحديث على المائدة فى موضوعات عادية . ولكن مارجريت فاجأته فى نهاية الطعام بقولها :

ـ ان هذا الخطاب يابيتر يبدو غير معقول اطلاقا . غير معقول بحيث لا يمكن أن نحاسب عليه كاتبه . لانه يدل على أن الكاتب لم يكن مالكا زمام نفسه . وينبغى أن تعلم وتدرك أن الارهاق فى العمل قد يؤدى بالانسان الى الانهيار العصبى

ـ وهل تظنين ان رجلا مهددا بانهيار عصبى يخوض معركة

انتخابات فرعية معادية بهذه الصورة ؟

ــ لا يقدم على هذا أيضا رجل يملك زمام نفسه

ــ ان والدى رجل عنيد يحب التحدى . كنا ونحن أطفال نراه يلغى ارادة أمى ، ويفرض رايه عليها بلا هوادة . وكانت هى تتحمل منه هذا . أما نحن أولاده فلن نتحمله

ــ انه يحبك كثيرا يابيتر . بل يحبكم كلكم

ــ ولكن طريقة المعاملة أهم لدينا من الحب

ــ انه يعامل جميع الناس بهذا الشكل . هذا طبعه ولا حيلة له فيه

ــ ونحن لا حيلة لنا فى العجز عن احتماله . انه يعاملنا معاملة احط من معاملة الخدم . ولا تحاولى الدفاع عنه فهو من القوة بحيث يتحمل نتيجة أخطائه

ــ أنا لا ادافع عنه وانما اريد ان أذكرك بأشياء معينة . أولها أنه تعرض فى المدة الاخيرة لقلق نفسى شديد ،

ــ ان كنت تعنين متاعبه فى العمل والسياسة فأنا أعتقد انه جلب تلك المتاعب على نفسه . فهو ميال للتحدى من غير روية ، شديد التجنى على خصومه فى الرأى . فلا يلومن الا نفسه لتألب الناس عليه

ــ انى أعرف هذا ولكن المتاعب هى المتاعب على كل حال . ومن متاعبه مالم يكن له فيه يد . مثل وفاة والدتك

فاربد وجهه وقال بجفاء :

ــ هذا موضوع لم اكن احب الخوض فيه حتى لا أقول قولا جارحا . فالحقيقة التى نعرفها جميعا فى بيتنا انه لو لم تنجب أمى هذه الشرذمة كلها من الاطفال لما عوجلت وهى بعد فى هذه السن الصغيرة !

ــ وهذا هو رايى أيضا يابيتر !

وأدهشه هدوؤها فصاح :

ــ ألا ترين ان هذا شىء فظيع ؟

ــ فظيع جدا

ــ الا يدفعك هذا لكراهية أبى ؟

ــ كلا . فأنا أحب الاطفال جدا فلا أملك أن أكره أحدا لمحبتــه اياهم ورغبته فيهم

ــ أما أنا فأرى هذا شيئا مغثيا للنفس

ــ لقد كانت وفاتها صدمة له على كل حال

ــ هذا بفرض انه كان يهتم بأمرها حقا . ولو أنه كان متعلقا بها لما ترك حياتها تذوى وهو متعمد ، فى سبيل ارضاء نزعته للابوة الكثيرة العدد

ــ انك مجادل بارع يابيتر ولكنك لن تصل الى اقناعى . والذى لاشك فيه أن والدك يواجه منذ انتهاء الحرب مشكلات كثيرة ...

ــ اعلم هذا . واعتقد انه يتحسر على سنوات الحرب باعتبــارها العصر الذهبى لامثاله من الرأسماليين الذين استفادوا منهــا ولم يشتركوا فى القتال

ــ انك شديد القسوة يابيتر على أبيك وتصوره فى صورة وحش لا قلب له

ــ ليس بالضبط انه ليس بلا قلب ، بل آفته انه بلا خيال . فلم يستطع أن يتصور ويلات الحرب وظنها نوعا من التنافس الرياضى أو المعارك الانتخابية . وانا حين أراجع تاريخ الاسرة فى الحرب اشعر بالخجل . فلم يشترك احد أفرادها فى المعارك ولكننا جميعا اثرينا من صنع محركات الطائرات والسيارات للاغراض الحربية . ولم يشعر أحد من أفراد اسرتنا جميعا بلحظة قلق شخصى أو أسف أو ألم

ــ بل كان منا من عانى هذا يابيتر

ــ من اذن ؟

ــ انا

ــ انت ؟

فقالت له بكل هدوء :

ــ لقد كان لى صديق من أعز من عرفت من الناس واحبهم الى قلبى . وقد لقى هذا الصديق حتفه فى الميدان قبل الهدنة بخمسة

ايام ، وكان فتى امريكيا لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره وقد التقيت انت به ذات مرة

فاختفت امارات العداء من وجهه وقال برنة ندم :

ــ انى آسف جدا ... لم تكن لدى ادنى فكرة ... ارجو أن تصفحي عنى . فأنا لم اقصد ايذاء شعورك ... والحقيقة اننى حين اتحمس لفكرتى تخرج من فمي ابشع الاقوال

ــ نعم . مثل أبيك تماما ...

وطفرت الدموع الى عينيها ومدت يدها عبر المائدة وربتت على يده :

ــ لا بأس يابيتر . لست غاضبة . بل واعتقد أن فيما قلته الكثير من الصواب . فنحن فعلا اثرينا بسبب الحرب . ولم نتالم كثيرا اذا قيس ذلك بما عاناه سوانا . ولكن لم تكن لنا فى ذلك حيلة . لان الثراء والآلام كانت مصائرها كلها فى ايد غير ايدينا ... والان هل نخرج لنتمشي قليلا ؟

وتقبل اقتراحها بسرور ، وخرجا معا الى الحدائق المحيطة بالجامعة . وكان البرد شديدا . وكان عارى الرأس لا يرتدى معطفا . ولكنه كان يشع قوة وحيوية . فلم يفتها أن تدرك شبهه فى هذا ايضا بأبيه . انه مثل ابيه فى كل شيء : فى تغير المزاج من النقيض الى النقيض ، وفى الاندفاع العنيف كالاعصار ، ثم الندم والصفاء والرقة بعد انتهاء العاصفة النارية . ولذا رأت فى العداء بين الاب والابن وفى الكراهية بينهما مدعاة للسخرية ومفارقة قوية

وفى بعض الطريق قال لها :

ــ اظننى اذكر ذلك الامريكى الذى تتحدثين عنه . لقد احببته . واذكر انى القيت عليه اسئلة كثيرة عن الجيش الامريكى

وتناولا الشاى فى مقهى . ولم يتحدثا عن مسألة العلاقات بينه وبين ابيه كثيرا او قليلا . ولكن على رصيف المحطة . وقد اوشك القطار ان يتحرك بها قال لها فجأة :

ــ سالغى رحلتى الى ملفورد . لن القى تلك الخطبة

ـ انى سعيدة بهذا يابيتر وشكرا لك على ضيافتك

ـ ارجو أن تكررى الزيارة !

ـ سأفعل . وداعا !

وعندما وصلت الى دارها ، كتبت رسالة قصيرة الى بينج تخبره برحلتها الى كمبردج ، وأن بيتر سوف لا يشترك فى الحملة الانتخابية

الفصل الرابع عشر

بعد المعركة

أسفرت المعركة الانتخابية الفرعية فى ملفورد عن خذلان بينج بخمسة آلاف صوت ضد أربعة عشر الفا فاز بها خصمه العمالى الاشتراكى . وفى اليوم التالى اذيع رسميا أن مؤسسة لوفل فرينشام سوف لا تدفع أرباحا للمساهمين تلك السنة . ولم تدهش مارجريت لاى من النبأين ولكن بومى أرسل اليها بعد يومين مذكرة قصيرة عن أعمال الشركة قال فيها :

« ان العذر الرسمى لسوء الميزانية هو اضراب عمال الفحم . ولكنه عذر ظاهرى . فلو لم يكن هذا الاضراب لما كانت حالة المؤسسة افضل مما هى عليه . واعتقد أن بينج لم يعد يحسن تصريف الامور . »

ولم يزعجها هذا التعليق لان مواردها الخاصة من أسهم الشركات الاخرى تكفيها وزيادة . وكذلك موارد نحها . فلن تحتاج الى ضغط المصروفات فى هاى ستاو . وأما عن بومى فحالته ميسورة جدا ، ولا تشعر بأى قلق من نحوه . فاذا ضير احد حقيقة بهذه الازمة المالية فهو بينج نفسه . وأحست فى أعماقها باشفاق عليه . وهو اشفاق لم تستطع التخلص منه . مع انها تعلم انه لا مبرر له الا التحيز لذلك الرجل رغم عيوبه جميعا !!

وهذا التحيز هو الذى دفعها غداة المعركة الانتخابية أن تركب سيارتها الى جلوسستر وتزوره فى داره . وكان البرد قارسا بعد ظهر ذلك اليوم — وهو يوم سبت — ولم تكن تتوقع فى الغالب ان تجده فى البيت بل وتمنت فى سريرتها الا تجده . ولكنه كان هناك بمفرده فى قاعة الجلوس الواسعة يطالع احدى المجلات . وعلى الفور

فطنت الى مدى قسوة الوحدة التى يعيش فيها هذا الرجل . وهى تعلم أن عدد أصدقائه الحقيقيين قليل رغم كثرة معارفه . فمعظم الناس قد قطعوا صلاتهم به منذ زمن بعيد ، لانه ليس من ابنـــاء العلية وليس جنتامانا بالمعنى الرفيع للكلمة . والقلة الباقية انصرفوا منه منذ بدأ نجمه فى الافول

واذهله ان يراها تدخل عليه . ولكن استقباله لها كان حارا . وقال متهكما وهو يصافحها بمودة :

ـ اظنك جئت لتهنئتى ؟

ـ لكم تمنيت ذلك . والواقع انى جئت لانك لم ترد على خطابى الذى ابلغتك فيه نتيجة رحلتى الى كمبردج

ـ اعتذر اليك عن هذا التقصير . فقد كنت مشغولا بدرجـــة لا يتصورها العقل . واعتقد انك تدركين هذا

ـ لا باس . والحديث الشخصى افضل على كل حال

ـ طبعا . ولابد أن نتناول الشاى معا

وتأملته وهى تجلس قبالته فلم تستطع أن تتبين من ســحنته ونظرته هل هو منشرح المزاج أو منقبضه . وكانت ابتسامته شبيهة بالابتسامة الابوية . واشعل سيجارا ثم قال لها :

ـ اذن كانت رحلتك الى كمبردج موفقة . ولابد أن بيتر اتعبك

ـ كان معقولا جدا فلم احتج الى مجهود كبير فى اقناعه

ـ اى معقولية هذه ؟ اترينه معقولا جدا لانه تراجع عن مهاجمتى علنا ؟ لقد انتصرت واقنعته . ولكن ليتك لم تنتصرى !

ـ لماذا ؟

ـ الا ترين ان فى ذلك اذلالا لى ؟ فهو دليل واضح على أنه يكن من التقدير لخالته اكثر بكثير من تقديره لابيه !

ـ اطلاقا يابينج . كل مافعلته اننى ناقشته بهدوء . ولو انك فعلت ذلك لخرجت بالنتيجة عينها

ـ تعنين بهـــذا اننى ما كنت لافعل ذلك ؟ انى مدرك تمـــاما يامارجريت انك لست من المعجبين بى . واعلم انك ظللت عشرين عاما تتجنبيننى جهد استطاعتك . والآن وقد تقدمت فى السن ، وضاق صدرى جئت تكشفين لى عن سوء رايك فى

ـ لماذا تقول هذا ؟ على اى اساس ؟
ـ اليست هذه هى الحقيقة ؟
ـ كلا
ـ اتريدين ان تقولى ان رأيك فى حسن ؟
ـ لا أريد ان اناقش الآن رأيى فيك
ـ ولم لا ؟ خبرينى بحقيقة رأيك فى . لقد كنت دائما مستقيمة التعبير . ولا تحاولى أن تراعى شعورى . لقد صمدت دائما للعواصف والصعاب . فصارحينى الآن برأيك السافر فى شخصى
واحمر وجهها ازاء هذا التحدى . وأجابته بحزم :
ـ سأخبرك اذن مادمت مصرا . انى أعتقد انك رجل كان فى وسعه أن يغدو عظيما جداً ولكنه لم يصبح عظيما . والسبب فى هذا ليست الظروف الخارجية بل شىء فى دخيلة نفسك . فوسائلك عنيفة وتفكيرك فى الامور من وجهة نظرك تفكيرا متحيزا . وقد اشتدت هذه الظاهرة فى الفترة الاخيرة فتوالى فشلك
ـ عظيم ! اليس هناك شىء أحسنه ؟ الا احسن ادارة مصنع للسيارات مثلا ؟
ـ تعلم كما أعلم انك حتى فى هذا لم تعد ناجحا كذى قبل . وأما حياتك فى الاسرة فلست بحاجة الى الحديث عنها . فحتى أبناؤك بدءوا يتألبون عليك
ـ اظن ان توقف الشركة عن دفع أرباح للمساهمين هو الباعث الاساسى لك على هذه الصراحة المفرطة فى نقدى . فيوم كانت الشركة تؤدى ٨٠٪ ربحا سنويا كنت فى نظرك رجلا لا عيب فيه !
فنهضت مارجريت واقفة وقالت :
ـ أظن من المستحسن أن اتركك الان . فانت لا تعى ما تقوله
وأخذت تجتاز القاعة الواسعة بخطى بطيئة نحو الباب . حتى اذا وضعت يدها على مقبضه لتفتحه سمعت صوتا اجشا يصيح من خلفها :
ـ مارجريت ... مارجريت أذاهبة أنت حقا ؟
والتفتت وراءها لتراه معتمدا برأسه على كفيه . وكأنه كبر عشر سنوات . وكان أشبه بمحارب قديم خرج محطما من معركة طويلة .

ـ آسف يامارجريت . فلا ادرى ماذا عرانى فى المدة الاخيرة . لا تذهبى

واحست انها غفرت له كل شىء فابتسمت وجلست . فقال بصوت اجش :

ـ فيما قلته لى كثير من الصدق

ـ حقا ؟ وفيما قلته انت ايضا كثير من الصدق . اننا لم نقدم لك الشكر على شىء مما فعلته لنا . وهو شىء كثير . أنت الذى رعيت مصالحنا واقمت دعائم الشركة . وصنعت لنا ثروتنا . ولا اذكر اننا ابدينا لك مقدار قلامة ظفر من الامتنان

ـ كلانا اذن آسف . مع اختلاف دواعى الاسف

ـ هو كذلك ان شئت

فنهض على قدميه فجأة وضغط زر الجرس وأمر الساقى باعداد الشاى ثم التفت اليها قائلا :

ـ ليتنا كنا صديقين طيلة هذه السنين !

ـ ليت . . . واظن أن الذنب فى هذا ذنبى يا بينج

ـ وذنبى أنا ايضا فقد كنت اظنك تمقتيننى

ـ أنا ؟ ربما . ولكنى لم اعد اذكر شيئا من ذلك

ـ حقا ؟ حتى ولا هذه المشاحنة حول خطبة بومى ؟

ـ آه . ولكنى أعنى ما قبل ذلك . يوم انضممت الى الشركة

ـ أهذا هو الذى لم تعودى تذكرينه ؟ انى أذكر هذه الفترة تماما اذكر اول مرة التقينا فيها وكان بومى يطوف بكما أنت وليلى المصنع وقدمنى اليكما واعتقد انك شعرت بالنفور منى من اول نظرة

ـ لا أظن اننى شعرت بنفور يومئذ

ـ ليتنى عرفت ذلك فى حينه . . .

ـ لماذا ؟

ـ لا ادرى . ولكن الامور ربما اتجهت بعدها غير الوجهة . . .

ولم يرد . وسكتت هى فلم تسأله ايضاحا

وعلى مائدة الشاى تحدثا حول ذكريات قديمة كثيرة . وجرى ذكر لوفل وكيف كانت وفاته . وبينج فى زيارته . . وكانت مارجريت فى باريس فى ذلك الوقت

وقبل انصرافها اقترحت عليه أن يذهب لزيارة بيتر فى كمبردج. فقال على الفور :

ـ سأذهب اذا انت أتيت معى

فلم تتردد فى الموافقة لحظة ، واحست بسعادة غريبة تغمرها وهى تقود سيارتها عائدة الى هاى ستاو . كانت سعادة مغمورة بالشعور بالقوة والشجاعة والقدرة على اصلاح ما بين الاب وابنه . وبعد ذلك سيكون من اليسير تغيير حالة بينج النفسية . وقررت أن تكتب فى تلك الليلة خطابا الى بيتر ، ولكنها عندما وصلت الى الدار رأت سيارة بومى هناك . ثم شمت رائحة سجائره المصرية فى البهو . ولما دخلت حجرة الجلوس وجدت بومى نفسه مستغرقا فى النعاس فوق مقعد وثير أمام نيران المدفأة ، ودهشت وربتت على كتفه فاستيقظ مأخوذا وصاح وهو ينظر الى الساعة وينهض واقفا :

ـ يا الهى ! لابد أننى نمت زهاء ساعة ! كيف حالك ؟ هل وصلت الآن فقط ؟ قيل لى انك ذهبت لزيارة الجبار الاعظم بينج !

وأومأت برأسها ثم سألته عن صحة بولين فقال :

ـ بولين على ما يرام . وكذلك انت فيما أرى . فلا أعتقد أننى رأيتك فى صحة احسن مما انت الآن

ـ هذا تأثير الرياح الباردة

ـ نعم البرد شديد ... ما رأيك فى التوجه الى الحجرة الاخرى و ...

وكف عن الكلام فقالت ضاحكة :

ـ ونتناول قليلا من الشراب ؟ لا مانع عندى . واعتقد انك استغرقت فى النوم حتى نسيت أنك لم تعد تعيش هنا

وبكل هدوء ومن غير انفعال قال لها :

ـ ليتنى لم أزل أعيش هنا . لقد وقع بينى وبين بولين شجار فظيع

ولم يدهشها قوله . لانها ظلت طوال السنوات العشر الماضية فى حيرة من أمره ، ولا تستطيع أن تتصور كيفية حياتهما معا . وكانت هناك دلائل تبرز بين الحين والحين . وهاهو ذا دليل من كلامه على أن بولين لم تفهمه اطلاقا . كانت واثقة من هذا . فبولين

لا تستطيع أن تفهم مثلا كيف يمكن أن يتشاجر رجل مع زوجته أعنف شجار ، ثم ينام نوما عميقا وهو فى انتظار من يفضى اليه بموضوع النزاع . وسألته :

ــ أتعرف هى انك جئت آلى هنا يابومى ؟

ــ اظنها تستطيع التخمين

ــ ألا تعتقد ان هذا قد يزيد الامور سوءا ؟

ــ يزيدها سوءا ؟

وكان واضحا من لهجته أن الامور بينهما لايمكن أن تكون أسوأ مما هى الآن . واخذ يشرح لها كيف أن النزاع له اسباب ترجع الى سنوات كثيرة . فبولين تكره الريف . وهو شخصيا يشعر بالشقاء والاعياء كلما ذهب الى لندن . وحاولت مرارا ان تحمله على اتخاذ بيت فى لندن . فكان يماطلها ويعدها بذلك فى المستقبل من غير تحديد . واليوم بدات موالها المعتاد حول هذا الموضوع . ولكن بدلا من التسويفات التى عودها عليها انفجر سخطه . وتابع حديثه فقال :

ــ والحقيقة يا مارجريت انى لم اتمالك نفسى . فالاحوال فى الشركة سيئة . فكيف يمكن فى هذا الوقت بالذات أن تطالبنى باستئجار بيت اعجبها فى شارع بوند بايجار لا يعلم قيمته الا الله ؟! انها تريد أن تنتهى بى الى ملجأ العجزة والشيوخ المعدمين !

ــ ان الامور ليست بهذا السوء

ــ بل يجب فى هذا الوقت أن نقلل النفقات لا أن نزيدها

وابتسمت مارجريت فهى تعلم أن نوبة التشاؤم تعتريه كل خمس سنوات . وفى هذه النوبة تكون أعصابه فى منتهى التوتر . ولكنها لا تلبث طويلا حتى تزول . ولذا قالت له :

ــ انت تعلم جيدا يا بومى أن حالتك المالية على وجه العموم ميسورة للغاية . وأن أرباحك فى السنوات الاخرى تكفى لتغطية خسارتك فى الشركة وزيادة . فلا يجوز لك ان تتشاءم

ــ يجوز أو لا يجوز ! أنا لن أخضع لارهابها المستمر . واذا كانت لا تريد الحياة هنا فلها أن تذهب وتقيم فى بنسيون !

ـ هل قلت لها هذا ؟

ـ نعم

ـ وبعدئذ بدأ الشجار ؟

ـ نعم

ـ أوه يا بومى . هذا كلام ما كان ينبغى أن يقال بأى شكل !

ـ أتظنين هذا حقا يا مارجريت ؟

ـ طبعا . اسمع نصيحتى وعد اليها الان واصلح مابينك وبينها . لانك كنت فى غاية الحماقة

ولم يجب . ولكنه نقل الحديث الى الحديقة والازهار . وبعد برهة قال وهو يهم بالانصراف الى سيارته :

ـ يسعدنى الحضور الى هنا ويريحنى التحدث اليك بين حين وآخر . سواء رضيت بولين أو لم ترض . لا أستطيع الانقطاع عنك نهائيا . وسأراك قريبا بلا شك ... والى اللقاء ...

وبعد أن تناولت القهوة صعدت الى الطابق الاول ، وسألت الممرضة عن حالة أمها . ثم جلست بجوار فراشها . وكانت الام نائمة . فألقت مارجريت نظرة على الستائر . ولاحظت أن أوراق الحائط تحتاج الى تجديد . ولكن ما الحيلة وأمها ترفض ذلك باصرار ، لانها لا تريد أن تغادر هذه الحجرة ولو ليلة واحدة ؟
وفجأة فتحت الام عينيها وقالت لها :

ـ هل عدت يا مارجريت ؟ لقد سمعت سيارتك وانت ذاهبة

ـ نعم يا أمى . ذهبت الى جلوسستر لزيارة بينج

ـ بينج ؟ وكيف حاله ؟

ـ على ما يرام ...

وسكتت الام . لان هذه الاسئلة كانت كافية لديها لتشعر أن من حولها على قيد الحياة . وانها لم تزل على قيد الحياة بينهم . ونهضت مارجريت وصاحت :

ـ طابت ليلتك يا أمى

ثم همست للممرضة بكلمة تشجيع . واتجهت نحو حجرتها واذا الساقى يسرع نحوها ليقول لها ان ساقى سير أوين بينجلى تحدث الان بالتليفون ليبلغها أن السير أوين أصيب بانهيـــار مفاجى

وامرت باعداد السيارة . وعندما مرت فى طريقها بباب حجرة البلياردو تذكرت رسالة شبيهة بهذه منذ ثلاثين عاما . وكان المريض يومئذ اباها

الفصل الخامس عشر

إصبع القدر

عادت مارجريت الى هاى ستاو بعد منتصف الليل مباشرة وقد اكد لها الطبيب أنها لا تستطيع المساعدة فى شىء حاليا . فهناك ممرضة تسهر عليه . وستنضم اليها ممرضة اخرى . وعلمت منه ان الحالة تدل على انهيار تام بدنيا وعقليا نتيجة الارهاق الشديد . وهى حالة خطيرة لان بنية المريض الحديدية أتاحت له الصمود أطول مما يجب

وفى الدقائق القليلة التى قضتها فى حجرة المريض سمعته وهو فى حالة هذيان يطلق صيحات وحشية حول ملفورد والبلاشفة وما الى ذلك . ولولا أن الموقف بالغ الخطورة لكان مضحكا للغاية . لان تلك الصيحات كانت شبيهة كل الشبه بأحاديث بينج وخطبه العادية

وقضت اليوم التالى فى بيت بينج ولكن حالته لم تتحسن . ووصل أولاده جميعا من مدارسهم ، وجاء بيتر من كمبردج . فأثار منظرهم اشفاقها . ولذا صحبت حين عودتها الى هاى ستاو بريان وأفريل وروبرت . وكانت هذه هى المعونة الوحيدة التى استطاعت تقديمها

وتغير نظام حياتها فى الاسبوع التالى كله . ففى كل صباح تأخذ الاطفال معها الى جلوسستر . وتقضى النهار كله هناك . وفى كل يوم تتلقى من الطبيب تقريرا لا يتغير عن حالة المريض وكيف أنها لم تتغير . وفى اليوم الثامن اخبرها الطبيب أن هناك تحسنا طفيفا . وان الهذيان انقطع . وأنه يذكر اسمها فى هدوء . وأدخلوها اليه فتعرف عليها ، وتعلقت عيناه بها فى تلهف ، وهمس باسمها . ولم

تجد ماتقوله سوى مناداته باسمه . وبعد لحظة صمت سأل عن أولاده ثم طلب ان يراهم . فلما دخلوا نظر اليهم واحدا بعد الآخر ، ونمت نظراته عن اعمق الحب واصدقه . ثم خاطبهم قائلا :

ــ لم يعد هناك داع لبقائكم هنا . عودوا الى مدارسكم وسأسترد عافيتى قريبا

ــ ولم يقل اكثر من هذا وبعد خروجهم قال لمارجريت :

ــ أولاد طيبون ... كلهم . من الذى يعنى بأمورهم وهم هنا ؟

ــ الثلاثة الكبار بيترو وجون وميكى يعنون بانفسهم . اما الباقون فيقيمون معى فى هاى ستاو

ــ هذا فضل كبير منك يا مارجريت

ورمقها بنظرة غريبة فاحصة تحمل شيئا اكثر من الامتنان وأكثر من الاعجاب

وبعد اسبوع آخر تلاشى الخطر وكان بيتر قد عاد الى كمبردج وعاد اخوته جميعا الى مدارسهم . وظلت مارجريت تأتى كل صباح فى سيارتها مهما كانت حالة الجو والمطر . وتبقى مع بينج ســاعة تحدثه ان شاء حديثا ، أو تقرأ له فى كتاب أو صحيفة . أو تجلس معه فى صمت مانوس . وكان يتقدم نحو الشفاء ببطء شديد

وبمرور الايام أخذ يحدثها بغير احتجاز أو تكلف عن حبه لاولاده ، وثقته فى حسن نشأتهم . وذات مرة قال لها فجأة بعد صمت طويل :

ــ كم اتمنى لو كنت بجانبهم دائما لرعايتهم

وساد الصمت بعدها طويلا . ولم تعلق على كلماته . ولكنهــا شعرت بأن فى اعماقها كنوزا من الحنان لم تبذلها لرجل لانهــا لم تتزوج . وإن لديها من المواهب ما كانت حرية أن تحن به رجلا أعظم وأرق ... لو انها تزوجت رجلا من طراز بينج

◻

وبعد اسبوع ثالث بدأت تخرج به للنزهة فى الايام المشمسة فى انحاء الريف المحيطة بالمدينة . وذات مرة قال لها فجأة :

ــ هناك شىء يا مارجريت يلح على خاطرى وأريد أن أفضى به اليك . بل يجب أن أفضى به اليك . فهل لديك مانع ؟

ــ كلا ان كان لابد لك من ذلك

ومضت دقيقة قبل ان يقول لها :

ـ المسألة تتعلق بأول مرة رايتك فيها .. لقد رأيتك تتحاشين الاجتماع بي وترتبين الامور بحيث اكون دائما مع ليلى ... وبطبيعة الحال ... ايقنت انك تنفرين منى

ولم تقل شيئا . ولكن قلبها أخـذ يدق دقا عنيفا اختلجت له عروق دماغها :

ـ ... ولو لم أكن موقنا من هذا لكنت انت التى طلبت يدها

وبلا تردد أجابته وكأن واجبها الاول أن تصدقه القول بصراحة :

ـ ولو انك طلبت يدى لقبلت !

ـ يا الهي ! اكنت تقبلينني حقا ؟

ـ نعم . وانت قلت انك تريد أن تخبرني لتخلى ذهنك من هذه الرغبة الملحة . والآن فلنترك هذا الموضوع ولا نعود اليه ....

ـ ولكن ...

ـ ليس الآن على الاقل

وعادت به الى بيته ثم أسرعت عائدة الى بيتها . وكان القمـر يتوسط السماء وهى تخترق التلال بسيارتها . وراودتها نفسها أن تنزل وتتسلق تل ستاو فى قفزات متلاحقة تعبر بها عن فرحها الظافر

اذن كان بينج يريدها هى . وقد ظنته يفضل ليلى فكتمت هواها وتعمدت أن تتحاشاه ... ولكن هذا كله تاريخ قديم . ولا فائدة من مناقشته

وفى الصباح ذهبت الى جلوسستر لتراه كالعادة فبادرتها المرضة بانه نام نوما سيئا . ولكن عندما انفردت به مارجريت قال لهـا باسما :

ـ الممرضة تظنني اسوأ حالا اليوم . وهذا غير صحيح . فكل ما هناك أن خاطرا يلح على ذهنى ولن استريح حتى أطلعك عليه

ـ تكلم اذن لتستريح . ولكن لا تجهد نفسك

ـ تذكرين حديث الامس . لقد بدا لى غريبا أننا قضينا هـذه السنين كلها ، وكل منا مخدوع فى فهم شعور صاحبه . وشغلنى التفكير فى ذلك . وتساءلت هل فات أوان اصلاح ذلك الخطأ القديم ؟

ـ كلا بالطبع . لقد انتهى هذا الماضى وسنكون صديقين حميمين جدا فى المستقبل

ـ اخشى انك لم تدركى مرمى كلامى

ـ حقا ؟

ـ كلا . انى ياមارجريت أسألك بصراحة هل لديك مانع الان من الزواج بى ؟

فشحب لونها لانها طرحت من ذهنها منذ سنوات كل احتمال للزواج . كانت احيانا تتمنى لو أنها تزوجت . لا أن تتزوج الان . وفطن الى شحوبها فقال :

ـ اذا كنت ترين هذا مستحيلا كل الاستحالة ، فعليك ان تصارحينى الآن بذلك وسأحاول ان اطرد المسألة من ذهنى . وأعدك الا اعود الى اثارتها

ـ اتعنى هذا حقا يا بينج ؟

ـ بكل صدق واخلاص . هل ادهشك الطلب ؟

ـ لقد بدا مستحيلا . بالنسبة لسننا

ـ اننا لم نتجاوز سن الاهتمام بالحياة . صارحينى برايك !

ـ لم يتسع لى الوقت للتفكير . ويجب ان افكر مليا

ـ هل ستفكرين جديا حقا ؟

ـ نعم

ـ ومتى تبلغيننى رايك ؟

ـ متى وصلت الى قرار . وربما كان ذلك غدا

وتلك الليلة أخذت تسأل نفسها . انه فى الخامسة والخمسين وهى فى الخمسين . وامامهما نحو عشرين سنة يتم فيها نمو الاولاد ويتزوجون ، ويجتاز فيها المصنع الازمة وتزدهر أحواله . ويعود فيها بينج الى التوفيق ، ان لم يحقق فيها شيئا من آماله الضخام

انها لا تنوى أن تتحكم أو توجه . ولكنها ستستخدم تأثيرها المهدىء عليه وعلى أولاده . وربما أقنعته باعتزال السياسة نهائيا . ولكن ماذا سيقول بومى ؟ ماذا ستقول امها ؟ ماذا سيقول بيتر وجون ؟ انهم سيقولون جميعا انه زواج مصلحة او زواج عقل . ولكنها تعلم ان فيه أكثر من العقل والمصلحة

وتمنت أن يظل الامر سرا بينهما بعض الوقت . فان لغط الناس وتهانيهم قد تثير أعصاب بينج وهو فى طور النقاهة . وفى الصباح زارته فأنبأتها المرضة ان نومه كان قلقا . فلم تعجب وايقنت أن قلقه سيزول

وبمجرد انفرادهما معا قالت له بكل بساطة وعلى الفور :

ــ انى أحمل اليك جوابى يا بينج . سأتزوجك

واثلج صدرها أن ترى ابتسامته الصامتة البطيئة تتسع حتى تغمر وجهه الكبير كله ولمعت عيناه . واشرقت أساريره . فسألته :

ــ اراض انت الآن ؟

فقال متلعثما

ــ نعم . كل الرضا

ــ وكذلك انا

□

ومرت الايام وهى تشعر باحساس غريب مصدره ذلك السر الذى بينها وبين بينج . وأنها بعد كل هذه السنوات ستتزوج اخيرا ومع تقدم صحة بينج صارت حالتها النفسية اشبه بحالة فتاة من طالبات المدارس فى عطلة

وكانت هناك اشياء كثيرة جدا يجب الاتفاق عليها واعدادها ومناقشتها . وفى الرحلات الكثيرة التى صحبته فيها بين ارجاء الريف كانت هذه الموضوعات تشغل وقتهما . وذات مرة اقترحت عليه أن يكون شهر العسل رحلة طويلة بطيئة حول العالم . وبطبيعة الحال كانت هناك صعاب لابد من تذليلها . فمن الذى سيعنى بأمها اثناء غيابها ؟ ومع هذا كانت مناقشة الرحلة كأنها شىء سيحدث فعلا امرا سارا بهيجا . واشتريا الخرائط وكتب الرحلات ، ورتبا كل دقائق الرحلة وتفاصيلها . مع أن الموضوع كله لا يمكن البت فى تنفيذه الا بعد استشارة السيدة العجوز

وفى عطلة منتصف العام عاد بيتر الى البيت وجمعتهما جلسات ودية كثيرة ناقشا فيها آراءه السياسية . ولم يستطع اقناعها على طول الخط ولكنها لم تكن متحيزة ضد آرائه على كل حال . فكان دائما يبتسم ويقول لها :

ــ أعتقد انك أقرب الى الاتفاق معى

ــ أنا فى الحقيقة اقرب الى الاتفاق مع كل انسان

والواقع ان هذه الآراء الجديدة اثرت فى تفكيرها فبدات تنظر الى الناس على أساس جديد . هو اساس تكافؤ الفرص وحق جميع الناس فيه

أما بقية الاولاد فكان سلوكهم نحو بينج مرضيا للغاية . لقد اصبحت الحواجز بينه وبينهم اقل . واجترأوا ليلة عيد الميلاد على الصخب . ودخل معهم بينج فى مباراة تلبلياردو . وبعد انصرافهم الى مخادعهم صنت لنفسها وله كأسين كبيرتين . وكانت يدها ترتجف فقال لها :

ــ اراك مستثارة الاحاسيس !

ــ بل انى سعيدة للغاية . سعادة هؤلاء الاطفال تسعدنى

ــ أعتقد انك ستتزوجيننى محبة فيهم

ــ وأنت لماذا تتزوجنى اذن ؟

ــ لماذا ؟ لاننا سنكون أحمقين لو مضى كل منا يعيش بمفرده بقية عمره

ــ هذا سبب وجيه ومعقول وفيه الكفاية

نعم انهما أسن من أحاديث الغرام . فالغرام خارج برنامجهما . ولكنها ليست صحبة خالية من الود والتكافل

وفى بداية العام انبأت أمها . فتقبلت النبأ ببساطة . انها لم تعد تكترث كثيرا لما يصنعه الناس . وفى ذلك اليوم رن جرس التليفون وكان المتحدث بومى .

ــ تعالى بسرعة . حالة بولين سيئة وقد بعثنا فى طلب الطبيب

ولما وصلت الى بيت بومى وجدته هو فى حالة سيئة . كانت اعصابه على شفا الانهيار

وبعد قليل ولد الطفل . كان غلاما . ولكن بولين ماتت !

ووجدت نفسها أمام موقف جديد . أمام أخ عاش طول حياته معتمدا عليها . وهو الآن مترمل له طفل يتيم . وليس لهما فى الحياة من احد سواها

كان بومى اشبه بطفل مسلوب الارادة لابد أن تلازمه وترعى

حركاته وسكناته وتطعمه وتهدهده وتكفكف عبراته . وصحبته معها ليقيم فى هاى ستاو هو وطفله . وفى هاى ستاو ثاب الى عاداته القديمة واطمئنانه القديم . وجعل يقول لها :

ـ لا أدرى ماذا يكون مصيرى لولاك يامارجريت

وعندما جاء بينج للعزاء كانت نظرة واحدة الى عينيها كافية كى يفهم كل شيء . كى يفهم أن واجبا آخر قد استأثر بها دونه فى آخر لحظة . واغضى وهو يشد على يدها بحرارة . فقالت همسا . بصوتها الهادىء المطمئن :

ـ سنكون دائما صديقين حميمين . ينبغى أن يكون هذا كافيا

وهز رأسه ولم يتكلم . فقالت :

ـ يجب يا بينج . لابد . .

فابتسم ابتسامته البطيئة وقال :

ـ نعم . لابد . .

ـ ولابد ايضا أن تستعيد صحتك لتشرف على العمل . فحالة بومى لاتسمح له فى الوقت الحاضر بنشاط يذكر

فازدادت ابتسامته اتساعا وهو يقول لها :

ـ كلانا يجب أن ينهض ويواصل الكفاح . فمن سوانا يستطيع ؟

القصص العالمية للجميع

الفرسان الثلاثة "جزئين"	اسكندر ديماس
الكونت دي مونت كريستو	″
ذهب مع الريح "جزئين"	مارغريت ميتشل
رجال ونساء .. وشعب	جون شتاينبك
ليلة غرام	سومرست موم
كنت جاسوسا	
غادة الكاميليا	مارسيل موريت
جريمة في الريفيرا	جورج سيمنون
الأرض الطيبة	بيرل باك
عذارى المعبد	
ايفانهو "أو الفارس الأسود"	سير والتر سكوت
دافيد كوبرفيلد	شارلز ديكنز
أحدب نوتردام	فيكتور هيغو
آلام فرتر	يوهان جوته
العجوز والبحر	ارنست همنغواي
سوف تشرق الشمس	″
الكأس الأخيرة	اجاثا كريستي
عدالة السماء	″
القاتل الخفي	″
الرجل الغامض	″
غادة طيبة	″
عذراء وثلاثة رجال	جيمس هيلتون

مطابع المؤسسة العامة للوسائل التعليمية – حلب – المكتبة الطلائعية